ما معنى تجديد الخطاب الديني؟

رسالة إلى من يهمه الأمر

بقلم

توحيد الزهيري

هذا الكتاب

رسالة إلى من يهمه الأمر من أهل الحكم والنخبة الثقافية وأصحاب العلوم الشرعية تبين معنى تجديد الخطاب الديني وغايته والوسائل التى يتحقق بها ، وقد رأى الكاتب أن تجديد الخطاب الديني يتحقق عبر ثلاث وسائل أو ثلاثة محاور:

١- إعادة تفسير القرآن الكريم على ضوء تقدم المعرفة الإنسانية.

٢- تدوين الحديث النبوى على نسق جديد.

٣- إنشاء فقه جديد يجيب عن أسئلة العصر الحاضر.

عسى أن تجد هذا الرسالة أذن واعية.

توحيد الزهيري

ما معنى

تجديد الخطاب الديني ؟

رسالة إلى من يهمه الأمر

ما معنى

تجديد الخطاب الديني ؟

رسالة إلى من يهمه الأمر

بقلم

توحيد الزهيري

تمهيد

ما معنى "تجديد الخطاب الدينى"؟:

كثر الحديث وعلا الضجيج حول قضية تجديد الخطاب الدينى، خاصة بعد أن أعلن الرئيس المصرى عبدالفتاح السيسى أن هذه القضية هى أحد محاور برنامجه السياسى الذى تعهد بتنفيذه.

ولكننا – وبعد أكثر من عامين من الإعلان عن هذه القضية – لا نرى أثرًا يُذكر أو يمكن الإشارة إليه فى مجال تحقيق ذلك التجديد المنشود.

والسر وراء هذا التقاعس أو التراجع يرجع – فى رأيى – إلى غموض القضية فى عقول الذين اتخذوها شعارًا، والذين أُنيط بهم القيام بذلك التجديد، والذين يدعون قدرتهم على القيام به؛ فاختلط الحابل بالنابل، وصرنا فى دخان ودوامة من الشعارات الجوفاء التى تتطاير "على الهواء" فى برامج التلفزيون، وعلى صفحات الجرائد

والمجلات؛ حيث يتم تبادل الاتهامات بالجمود والتخلف، والكفر والإلحاد بين أطراف لا يعلمون – فى رأيى – عم يتحدثون!!

و لذلك أجد لزامًا علىّ أن أوضح أوجه القضية التى يتشاجرون ويتصارعون حولها دون طائل، فأقول:

أولاً: ما هو التجديد؟:

"**تجديد**" الشىء يعنى إصلاحه من أجل أن يعود "جديدًا" كما كان قبل أن تطرأ عليه الأعطاب والعيوب، أو التشوهات التى أصابته عبر الزمن.

فنحن عندما نقوم "بتجديد" بيت أو سيارة، فإننا نجرى الترميمات وعلاج الأعطال والأعطاب التى أصابت أيًّا منهما (البيت أو السيارة)؛ من أجل أن يعود إلى "الحال" التى كان عليها أولًا عندما أُنشئ البيت أو خرجت السيارة من المصنع ..

وغنى عن البيان أننا لا نقوم بالتجديد إلّا إذا كنا "مقتنعين" بأن البيت لا يزال فى حالة تسمح له بإيوائنا والعيش فيه، أو أن السيارة لا زالت فى حالة تمكننا من استعمالها فى السفر.

أما إذا كان البيت أو السيارة فى حالة تهالك، ولا أمل فى الإصلاح (التجديد أو الإحياء)، فإننا نهدم البيت ونلقى بالسيارة فى "مقبرة" السيارات؛ من أجل أن تُباع أجزاؤها أو بقاياها.

ثانيًا: ما هو الخطاب الدينى؟:

الخطاب الدينى هو المعرفة المختصة بالعقيدة (الإيمان)، والشريعة (القواعد العامة الحاكمة للعلاقات بين المخلوقات)، التى تُقدم لكل من يطلب هذه المعرفة.

يعنى فى كلمات أخرى: الخطاب الدينى هو "العلوم الشرعية" التى تُدرس فى المدارس والمعاهد والكليات لكل من يطلب هذا "النوع" من العلوم .. والتى تقدم فى وسائل الإعلام لجمهور الناس؛ لتشارك فى تكوين الرأى العام، أو "العقل الجمعى" الذى يحرك ويضبط سلوك الناس.

والخلاصة: إن تجديد الخطاب الدينى فى الإسلام لا يعنى - بكل وضوح وبساطة - إلا إصلاح "المناهج الدراسية" التى تُقدم لطلاب العلوم الشرعية الإسلامية فى المداراس والكليات التى تدرس تلك العلوم؛ لأن المتخرجين فى هذه المدارس والكليات والمعاهد على اختلاف مستوياتهم العلمية، بدءًا من حملة الشهادات الدنيا من التعليم

الجامعى، وانتهاء بحملة الدكتوراه، الذين يتبوأون مقاعد الأستاذية والعمادة فى الكليات الدينية .. أقول هؤلاء هم الذين يقدمون "الخطاب الدينى" لعموم الناس فى المدارس والمساجد ووسائل الإعلام، ويشكلون الرأى العام، أو العقل الجمعى الذى يسيطر على سلوك الجموع.

إذن، لابد من إصلاح المناهج الدراسية التى يتعلم منها هؤلاء المدرسون والوعاظ، وأئمة المساجد، ومعدّو ومقدمو البرامج الدينية فى وسائل الإعلام (الاتصال العام)؛ لكى يقوموا بدورهم بتعليمها لعموم الناس.

***

والسؤال الآن: هل هناك ضرورة ملحة، أو هل نحن فى حاجة ماسة إلى تجديد الخطاب الدينى (إصلاح العلوم الشرعية الإسلامية)؟

والإجابة واضحة كالنار، قاطعة كالسيف الحاد: نعم بكل تأكيد.

والسؤال: لماذا؟

والجواب: لأن الحاجة إلى التجديد (الإصلاح) هى من صميم طبيعة كل شىء بشرى؛ فإذا كان رسول الله ﷺ قال: **"كل بنى آدم**

خطاء وخير الخطائين التوابون" (الحديث رقم 4515 فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير للألبانى).

وتعبير "كل بنى آدم" يشمل كل البشر، بما فيهم الأنبياء والعلماء والصالحين والطالحين ..

فلا عصمة من الخطأ إلا لله سبحانه وتعالى؛ فهو الوحيد المعصوم من الخطأ؛ لأن إرادته هى القانون الذى يتم عليه الحساب، فيميز به الصواب من الخطأ .. فليس هنالك من سبب يبيح لنا أن "ندّعى" أننا أكثر إيمانًا وتدينًا من النبى ﷺ نفسه الذى نسب الخطأ إلى كل البشر!!

والخطاب الدينى (العلوم الشرعية) هو جهد واجتهاد بشرى فى فهم النص الإلهى المقدس؛ ومن ثم فهو محكوم عليه بالوقوع فى الخطأ، بل فى كثرة الخطأ؛ لأن الرسول الأعظم ﷺ قال: **(خطاء)**، يعنى كثير الخطأ.

والواجب الذى يلقيه الله سبحانه وتعالى على كاهل كل إنسان أن يجتهد فى إصلاح ما يقع فيه من أخطاء، وهذا الإصلاح (التجديد) هو إحدى ثمار التوبة.

ومن ثم فإن إصلاح (تجديد) الخطاب الدينى ينبغى أن يكون جهدًا مستمرًّا متواصلًا عبر الأجيال؛ من أجل فهم أعمق للوحى الإلهى، وإصلاح أشمل لحياة الإنسان على هذه الأرض.

ولذلك شهد تاريخ الفكر العربى الإسلامى - عبر العصور - محاولات عديدة لتجديد (إصلاح) الخطاب (الفكر) الدينى.

فمنذ ما يقرب من الألف عام كتب الإمام أبو حامد الغزالى كتابه الأشهر: إحياء علوم الدين .. إنه قد أدرك أن علوم الدين (الخطاب الدينى) قد ماتت؛ بسبب ما اعتراها من أمراض (أخطاء وتشوهات)، فأراد أن يحييها (يصلحها ويجددها) بتنقيتها من تلك الأمراض.

وقبل ما يقرب من مائة عام كتب المفكر والشاعر الباكستانى محمد إقبال كتاب: تجديد الفكر الدينى فى الإسلام، الذى ترجمه الأستاذ عباس محمود العقاد.

وشهدت المكتبة العربية عدة أعمال تتحدث عن "زعماء الإصلاح"، و"المصلحين والمجددين فى الإسلام".

والخلاصة: إن الإصلاح (التجديد) كان - وينبغى أن يظل - جهدًا مستمرًّا ومتواصلًا؛ للوصول بالإنسان إلى مستوى الكمال

المنشود والمتاح له فى هذه الحياة الدنيا، ولا يصح أن يكون الخطاب الدينى (العلوم الشرعية)، بعيدًا عن تناول يد الإصلاح.

***

ثم يصبح التجديد (الإصلاح) ضرورة أكثر إلحاحًا فى زمننا الحاضر؛ حيث يواجه العقل المسلم المعاصر طوفانًا من الأسئلة الملغزة، التى تفرضها عليه ظروف الحياة فى القرن الحادى والعشرين بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

وهى أسئلة تشمل كل نواحى ومستويات الحياة، بدءًا من أمور المعيشة مثل الملابس، ومرورًا بالأوضاع الاقتصادية والسياسية، ولا تنتهى بالقضايا العلمية، مثل خلق الإنسان ونشأة الكون. ولا يجد المسلم المعاصر عند أصحاب الخطاب الدينى التقليدى الإجابات الواضحة التى يطمئن إليها الإيمان فى قلبه، والعلم فى عقله (فؤاده)، فيبقى حائرًا مشتت الفكر.

فعلى مستوى القضايا البسيطة، تشتعل حول النقاب (ستر وجه النساء) معارك طاحنة بين من يرون وجوبه (فرضيته)، ومن يرون استحبابه (تفضيله)، ومن يرون تحريمه (حظره) .. وكل فريق يستند إلى أفهام وأقوال، تستمد حجيتها من "نصوص" شرعية!!

وربما جسّم حزب النور "**السلفى**" فى مصر هذه المأساة الملهاة، عندما قدم على قوائم ترشيحاته للانتخابات البرلمانية بعض النساء؛ إذعانًا للقانون، ولكنه يؤمن بوجوب (فرض) النقاب، ولذلك وضع وردة مكان وجه المرشحة على لافتات الدعاية الانتخابية .. والسؤال: كيف يمكن لامرأة لا تستطيع أن تكشف عن وجهها أن "تواجه" الجمهور؛ لتساعدهم فى حل مشاكلهم، وأن تواجه المسئولين لتسائلهم عن أخطائهم وخطاياهم وفسادهم؟!

إنها حيرة العقل السلفى الذى يعيش فى عالم افتراضى شيدته أقوال فقهاء عاشوا فى زمن آخر!!

ويفضى بنا ذكر الانتخابات البرلمانية إلى قضية قيام الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية ..

لقد قامت الدول "النظم السياسية" طوال تاريخ المسلمين على اغتصاب السلطة بالقوة والمؤامرات، منذ اغتيال الإمام على بن أبى طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وطوال العهدين الأموى والعباسى وما بعدهما حتى يوم الناس هذا؛ ومن ثم فقد كان من المحال قيام معارضة سياسية منظمة، تطالب بالحصول على الحكم بوسائل سلمية؛ لأن الخلفاء غير الراشدين الذين حكموا طوال التاريخ لم يكونوا ليسمحوا بذلك ..

ولذلك لم تكن هنالك من وسيلة للمعارضة والاستيلاء على الحكم إلا عن طريق القوة بالتمرد المسلح، الذى نسميه الآن الانقلاب العسكرى.

و كُتب الفقه الإسلامي (أحكام الشريعة الإسلامية) فى ظل – أو بالأحرى – تحت أقدام الاستبداد؛ ولذلك خلت من أى تنظير (رؤية) لشرعية السلطة السياسية، وكيفية الحصول عليها (الوصول إلى سدة الحكم)، وكيفية انتزاعها.

وعانى الفقه الإسلامى من ضمور شديد – يقترب من الموت – فى ميدان الحكم (السياسة)، فى مقابل تورم وترهل ضخم فى ميدان العبادات (الوضوء والاغتسال والصلاة ...).

ولم يكن ذلك لخلو القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية من أقوال وأفعال يمكن استنباط أصول الأحكام الشرعية منها لضبط أمور الحكم، ولكن كان ذلك بسبب أن السلطة السياسية كانت طوال التاريخ تُغتصب بالقوة.

وبهذا الرصيد المتهافت والمضطرب من الفقه "السياسى" دخل أصحاب التيار الإسلامى فى ميدان الصراع السياسى والانتخابات التنافسية فى تناقض واضح وصارخ مع ما يحملونه فى قلوبهم وعقولهم

(أفئدتهم) من خطاب دينى مستمد من ذلك التراث الضامر المتهافت، فَضَّلُّوا وأضلّوا، وخبطوا وتخبّطوا، وكانوا فى النهاية ألعوبة فى يد من يدير الأحداث – فى الداخل والخارج – من وراء حجاب.

وفى ميدان الاقتصاد لا تزال المعارك مشتعلة حول استثمار النقود فى البنوك، وفى ميدان العلاقات الدولية والسياسة الخارجية نرى رافعى الشعارات الإسلامية يعلنون الجهاد (القتال) ضد إسرائيل، ويوثقون علاقاتهم المالية مع أمريكا والغرب الصهيونى المتآمر.

وفى ميدان القضايا العلمية ما يزال عتاة السلفية الإسلامية – التى تتحدث باسم القرآن والسنة – يؤمنون بأن الشمس تدور حول الأرض، وكفّر واحد من أشهرهم – هو الشيخ عبد العزيز بن باز – من زعم أن الإنسان قد صعد إلى القمر ومشى على سطحه، رغم أن الصور المنقولة بالأقمار الصناعية لا تدع ظلًّا من شك فى حقيقة ذلك.

ولا نريد أن نطيل فى ذكر الشواهد على عجز أصحاب الخطاب الدينى التقليدى عن فهم حقائق العصر الذى نعيش فيه، وعن إدراك مغزى التغييرات الهائلة التى أحدثها " تطور" العلوم البشرية، وعن إعطاء الإجابات الواضحة عن الأسئلة الملغزة التى تعترض طريق العقل المسلم المعاصر.

ثم يرتفع تجديد الخطاب الدينى إلى مرتبة الضرورة القصوى والغاية العليا فى أيامنا هذه، التى تشهد ارتفاع موجات الإرهاب المزعوم إسلاميته، أو الذى يرفع شعار الإسلام، وينشر الدمار والخراب فى مختلف أنحاء الأرض، ويستند فى أفعاله إلى أقوال الفقهاء والمفسرين فى المراجع الأصلية "المعتمدة" عند أصحاب الخطاب الدينى، أعنى أصحاب "صنعة العلوم الشرعية"، الذين يكنون احتراما عميقًا - ولا أريد أن أقول تقديسًا - لتلك الأقوال، ومن ثم فهم لا يملكون دحض تلك الأقوال، ولا حتى وضعها فى سياقها التاريخى، الذى يحول بينها وبين أن تكون ذات طابع خالد، يصلح لكل زمان ومكان، مثل آيات الوحى الإلهى، فلا يملكون الرد إلا بعبارات الشجب والإنكار، أو بذكر أقوال أخرى تخالف وتناقض الأقوال الأولى التى ترفعها جماعات الإرهاب والعنف، ويترك الإنسان المتلقى لكل ذلك للحيرة والغموض.

والسؤال الآن: كيف يمكننا تجديد الخطاب الدينى؟ يعنى كيف يمكننا إصلاح المناهج الدراسية التى تعلم الناس العلوم الشرعية، وتشكل وعيهم الدينى، أو ثقافتهم الدينية التى تضبط سلوكهم؟

ويفضى بنا هذا السؤال إلى الحقيقة التى تقول: إن كل ما سمى بالعلوم الشرعية إنما يرجع إلى مصدرين اثنين لا ثالث لهما، وهما القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

ومن ثم، فإن تجديد الخطاب الدينى إنما يعنى أساسًا: تجديد علم التفسير، وإعادة تدوين الأحاديث النبوية على نسق جديد، وإنشاء فقه جديد.

❊❊❊

الباب الأول

إعادة تفسير القرآن

الباب الأول
إعادة تفسير القرآن

قد بينت الأخطاء المنهجية والفكرية التى وقع فيها المفسرون السابقون، والتى لم تضف لقارئ القرآن المجيد شيئًا يُذكر، والتى لم تجعل النص الإلهى الحكيم أكثر قربًا من عقل (فؤاد) ووجدان القارئ، فى مقالٍ بعنوان: تجديد علم التفسير .. فريضة دينية وضرورة عقلية، فى كتابىّ "حقيقة المعراج"، و"الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة".

والخلاصة: أن العيب الأساسى هو افتقادهم للرؤية الشاملة للنص القرآنى، فتراهم يفسرون كل لفظ أو جملة على حدة، ويجرون وراء الروايات التى قالها السلف فى شرح هذه الألفاظ، والتى غالبًا ما يخطئون فى الوصول إلى معناها الصحيح أو المقصود؛ لأنهم يبحثون عنه خارج النص القرآنى نفسه، غير منتبهين إلى السياق الذى وردت

فيه الألفاظ؛ وكل ذلك بسبب افتقادهم للرؤية الواسعة الشاملة لمجموع النص القرآنى.

ثم ترى المفسر يستغرق ويغرق فى التفاصيل التى تشغل عقله هو، والمتعلقة بالعلم الذى يستهويه وتخصص فيه، ولا تهم القارئ الباحث عن معانى القرآن، والإجابات التى يقدمها النص الإلهى عن الأسئلة الوجودية الجوهرية التى تدور فى عقله ووجدانه، وتبحث عن إجابات شافية، فنجد أن تفسير الإمام القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ليس فى حقيقته إلا موسوعة فقهية، تناولت بإسهاب شديد مبالغ فيه قضايا الفقه، وآراء الإمام القرطبى فيها، مع ذكر القراءات المختلفة للنص القرآنى.

وغنى عن البيان أن الباحث عن أحكام الفقه أو القراءات يبحث عنها فى المراجع الخاصة بهذين العلمين، وليس فى كتاب لتفسير القرآن.

وينتهز الإمام ابن كثير الفرصة عند ذكر مجموعة من الآيات؛ للإدلاء بما يحفظه من أحاديث نبوية، باعتباره أحد كبار الحفاظ (علماء الحديث النبوى).

ويسهب الإمام الزمخشرى فى بيان الصور البلاغية، ويكثر من الشواهد اللغوية .. كما ينتهز الفرص لـ (لىّ) أعناق الآيات؛ لتتوافق مع مذهبه الفكرى الاعتزالى.

وهكذا غنّى كل مفسر على ليلاه .. ولم يخرج المحدثون عن الإطار الذى رسمه الأقدمون، بل ساروا على خطاهم.

ولن نتكلم عن الأخطاء العلمية الفادحة والفاضحة التى امتلأت بها كتب التفاسير "المعتمدة" عن أهل صنعة العلوم الشرعية .. تلك الأخطاء التى فرضها جهل المفسرين بحقائق التاريخ وحقائق العلم التى لم تتكشف إلا فى العصر الحديث .. فضلًا عن نهلهم من أساطير وخرافات أهل الكتاب، المسماة بالإسرائيليات.

والمطلوب إعادة تفسير القرآن الكريم على نسق جديد، يحقق معنى التفسير، الذى يعنى التأويل والتأليف والشرح (البسط).

* فأما التأويل فيعنى كشف الغموض عن معنى الألفاظ، برفع شبهة التناقض أو التضارب مع الحقائق، واختيار أحد المعانى التى يحتملها النص، وبيان "سر" الاختيار .. وهذا هو الفهم.

* وأما التأليف فيعنى جمع الآيات التى تتناول قضية واحدة أو موضوع واحد، ووضعها فى سياق واحد، يلملم أشتات المسألة

موضوع البحث، وإذا قمنا بهذا العمل وحده، فإن كثيرًا من الأسئلة التى تثور فى عقل (فؤاد) قارئ القرآن ستجد إجاباتها فى يسر، وإن كثيرًا من الخلافات التى أثارت التنازع بين المفسرين والفقهاء عبر العصور، ستجد طريقها إلى الزوال - إن صدقت النوايا وتحقق الإخلاص - إذا نظرنا إلى "الصورة الكاملة" التى تجمع النصوص المتعلقة بنفس المسألة؛ لأن الخلافات تولد غالبًا من النظرة المبتسرة لجزء، أو بعض أجزاء من الصورة.

ولا شك فى أننا إذا قمنا بهذا العمل (الجمع أو التأليف بين الآيات التى تتكلم فى نفس القضية أو المسألة)، فإننا سنحقق معنى الوحدة العضوية لكامل النص القرآنى، وسنبرأ من النظرة الجزئية الضيقة الأفق التى تعامل بها السابقون مع النص القرآنى، حيث تناولوا آيات القرآن الكريم منفردة قطعة قطعة أو آية آية .. بالضبط كما تعامل نقاد الشعر العربى القديم، باعتبار أن البيت الواحد هو الوحدة البنائية للشعر، فيحاولون فهم معناه وتذوق جماله منفردًا، مستقلًّا عن بقية القصيدة التى غضّوا البصر عن وحدتها العضوية.

وسنتخلص من داء " النسخ" الذى أسرف المفسرون السابقون - خاصة القدماء منهم - فى الاعتماد عليه عند تفسير الآيات التى لا

يروق معناها لمفاهيم عقولهم، المستمدة من علوم (معارف) عصورهم واختياراتهم الشخصية، فيسرعون إلى القول بنسخ (إلغاء) حكم الآية التى لا تروق لهم بحكم آية أخرى يتفق فهمهم لها مع أهوائهم.

ولقد أسرف هؤلاء إلى حد الإسفاف، حتى ذكروا أن الآية الخامسة من سورة التوبة (السورة التاسعة فى ترتيب المصحف)، التى يسمونها آية السيف قد نسخت كل أحكام كل الآيات التى تدعو إلى السلام مع الكافرين غير المحاربين، وإلى العفو والتسامح وقبول الآخرين!!

وهكذا نسخت آية واحدة - بزعمهم وفى وهمهم - ما يقرب من ربع القرآن الكريم .. فتأمل!!

وسنبرأ من "روح" العدوان، والرغبة فى قتل كل من يخالف عقيدتنا .. ذلك الروح الذى تنضح به التفاسير الأصلية "المعتمدة" عند أهل الصنعة أصحاب العلوم الشرعية (الخطاب الدينى).

وكان ذلك هو الأساس الذى تبنى عليه حركات الإرهاب والعنف؛ فهو جذر هذه الشجرة الخبيثة التى تشوه رسالة النبى ﷺ، الذى بعثه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين.

* وأما الشرح أو البسط فهو تفصيل ما ذكره القرآن مجملًا (مختصرًا)، وهنا يأتى عمل السنة النبوية، التى تُفصّل ما أجمله القرآن

الكريم، ويأتى أيضًا عمل المعرفة الإنسانية، أو العلم بمعناه الواسع، الذى يساعدنا على اكتشاف جوانب ومستويات أعمق للنص القرآنى الحكيم البديع.

ويكون ذلك تحقيقًا لقول الله سبحانه وتعالى - متحدثًا عن القرآن:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: 53].

الآفاق: ميادين المعرفة الإنسانية، أعنى مجالات العلم.

سنريهم: سنكشف لهم، ونمكنهم من رؤية الدلائل على صحة مقولات القرآن الكريم، وهذه الأدلة هى "آياتنا" التى تشير إلينا.

وما هى الغاية من هذا الكشف والتمكين من رؤية الآيات (الدلائل والقرائن)؟ هذا هو السؤال.

والجواب: "حتى يتبين لهم أنه الحق".

من أجل أن يتضح لهم، ويملكوا البراهين على أن القرآن الكريم هو "الشهادة الحق"، التى تكلم بها الله سبحانه وتعالى إلى الناس، عبر نبيه الأمى ﷺ؛ لكى يدلهم على الطريق المفضى بهم إلى الحقيقة إذا استقاموا فى السير عليه.

والآية القرآنية هنا تضع الأساس المتين لما أُطلق عليه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، وتدعو الناس جميعًا إلى النظر فى "المحتوى العلمى" للنص القرآنى؛ من أجل رؤية أنه من المحال أن يصدر من عقل بشرى لإنسان عاش فى القرن السابع الميلادى، حيث كانت ظلمات الجهل بحرًا لجيًّا تغرق فيه عقول (أفئدة) البشر جميعًا، والخرافات موجات متلاطمة يعلو بعضها فوق بعض .. تلك الخرافات التى وجد بعضها طريقه إلى كتب تفسير القرآن المجيد المعتمدة عند أهل الصنعة.

والآية القرآنية المجيدة تدعونا إلى تجديد علم التفسير على الدوام؛ من أجل فهم أعمق للقرآن بموجب اتساع العلم الإنسانى بمفهومه الشامل؛ ولذلك كان عنوان مقالنا: "تجديد علم التفسير .. فريضة دينية وضرورة إنسانية".

***

وغنى عن البيان أننا – نحن المسلمين – لن نستطيع أن ننجز شيئًا فى هذا الميدان (إعادة تفسير القرآن الكريم كبداية لتجديد الخطاب الدينى)، إلا إذا تخلينا عن النهج "السلفى"، الذى يدعو – فى الحقيقة

- إلى "تقديس" الأسلاف، ويحظر على العقل الاختلاف معهم، ورؤية الأشياء (الآيات) على نحو يغاير رؤيتهم لها.

وهذا هو الداء العضال الذى أهلك الأمم السابقة، ودعاهم إلى تكذيب رسل الله، وأصمهم عن سماع الحق، وأعماهم عن رؤية الحقيقة.

ولقد أفاض القرآن الكريم فى بيان ذلك الداء العقلى، وما أفضى إليه من الضلال والهلاك، وندعو القارئ الكريم إلى قراءة الآيات: الآية 170 من سورة البقرة، والآية 104 من سورة المائدة، والآية 28 من سورة الأعراف، والآية 70 من نفس السورة، والآية 78 من سورة يونس، والآيتان 62 و87 من سورة هود، والآية 10 من سورة إبراهيم، والآيات 51 - 54 من سورة الأنبياء، والآيات 22 - 24 من سورة الزخرف.

كما ندعوك إلى قراءة باب: تحرير العقل فى كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" ص 176 – 202.

إن شعار "أهل الصنعة" من أصحاب الخطاب الدينى التقليدى، أو بالأحرى الكهنوتى، أنهم لا يقبلون أبدًا أن يقول واحد من "غيرهم" شيئًا فى تفسير القرآن يختلف عما اعتادوا عليه من الأقوال المكررة فى

كتب التفسير المعتمدة عندهم. فإذا قال واحد من "غيرهم" شيئًا، مهما بلغ عمق علمه ودقة فهمه، فإنهم يسارعون إلى إعلان الحرب عليه؛ بدعوى عدم الاختصاص، ويسألونه محتجين ومتعالمين عليه: هل قرأت الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وعلمت ما يجب تقييده من العموم ...؟

غافلين عن أن كتب الناسخ والمنسوخ تحتوى على مهازل وفضائح يجب سترها، لا التباهى بالعلم بها؛ لأنها تكاد تجعل القرآن يضرب بعضه بعضًا، وتنزع عنه القداسة الواجبة له باعتباره تنزيلًا من الله العزيز العليم الحكيم .. وأن كتب "أسباب النزول" تحوى أخطاءً لا يكاد يصدق صدورها عمن يوصفون بالعلماء.

وإذا كان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعترف (كما ذكرت كتب التفسير) أنه كان يجهل معنى لفظ الفعل "فطر"، حتى جاءه أعرابيان يختصمان لديه - باعتباره قاضيًا مفتيًا - فى بئر يدعى كل منهما أنه صاحبها.

فقال واحد منهما ليبرهن على أحقيته بملكها: أنا فطرتها.

فظن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قد عرف معنى الفعل "**فطر**"؛ إذ وقع فى ذهنه أنه يعنى "بدأها"، أى بدأ حفرها .. فصار فى ظن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن الفعل "فطر" يعنى بدأ.

ولا شك فى أن هذا الظن خاطئ؛ لأن الفعل "**فطر**" فى القرآن الكريم نفسه، وفى اللغة العربية قبل نزول القرآن، يدور معناه حول: الشق والانشقاق، يعنى تفكك بناء الشىء، وظهور ما كان يخفيه (يخبئه) داخله. يقول العربى الجاهلى قبل نزول القرآن: فطر ناب البعير، إذا ظهر فى فمه عندما يشق اللثة التى كانت تخفيه قبل انفطارها (تشققها).

ولما أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار:1]، فسر هذا الانفطار بقوله فى السورة التى تلتها فى ترتيب النزول "إذا السماء انشقت".

ونحب أن نحيل القارئ إلى موسوعة لسان العرب لابن منظور مادة فطر ص 3432 – 3435، وإلى تفسيرنا للسورتين فى كتاب: أول الطريق .. رواية ورؤية لنشأة الكون ونهايته، ص 139 - 177.

فإذا كانت هذه حال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، الذى يحلو لأهل الصنعة من أصحاب الخطاب الدينى أن يسموه "ترجمان القرآن"، فما بالك بالذين هم دونه علمًا وتقوى؟!

***

بالطبع إننى لا أسب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولا من أتى بعدهم من التابعين وعلماء القرون الأولى، ولا أدعو إلى الحط من قدرهم أو تسفيه آرائهم، ولكننى أدعو إلى حظر تقديسهم، والتحجر عند آرائهم، وتنزيههم عن الخطأ والغفلة، فلا عصمة إلا لله سبحانه وتعالى، كما قال النبى: **"كل بنى آدم خطآء"**.

إن النهج أو المزاج السلفى يأمر بتقديس "القديم" الذى كان عليه السلف الصالح، الذى يمتد -بزعمهم - إلى نهاية القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وينهى عن مناقشته، أو النظر إليه بعين العقل الناقد، فضلًا عن الاختلاف معه والرؤية بنظرة مغايرة؛ فإن ذلك من الكفر الذى يُخرج صاحبه من الملة.

و لقد حطم رسول الله ﷺ أساس هذا النهج المتحجر بقوله:

"نَضَّر الله امرأ سمع منا حديثًا، فحفظه ووعاه حتى يبلغه غيره، ثم أداه كما سمعه إلى من لم يسمعه؛

فرب حامل فقه ليس بفقيه

ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه

ورب مُبَلَّغ أوعى من سامع

ثلاث لا يغلُّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم".

هذا هو نص الحديث النبوى الذى تناثرت أطرافه وتعددت رواياته (صياغاته اللفظية) فى مختلف كتب الحديث النبوى، فأخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بروايات مختلفة عن عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وجبير بن مطعم، وأخرجه الترمذى فى سننه بروايات مختلفة عن زيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود.

وأخرجه ابن ماجه فى سننه بروايات مختلفة عن أنس بن مالك، وعن جبير بن مطعم، وعن زيد بن ثابت وعن عبد الله بن مسعود.

وأخرجه أبو داود فى سننه بروايات مختلفة عن زيد بن ثابت.

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود.

وأخرجه الحاكم فى المستدرك عن جبير بن مطعم .. رضى الله عن جميع أصحاب رسول الله ﷺ.

وأشار إلى كل ذلك الأستاذ محمد ناصر الدين الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير"، الذى أورد أطراف الحديث فى أربعة أحاديث بأرقام: 6763، 6764، 6765، 6766.

وهكذا نرى حديثًا نبويًّا واحدًا، قد قيل فى حدث واحد من السيرة النبوية - أرى أنه كان فى حجة الوداع - قد تحول فى كتب الحديث النبوى إلى عديد من الأحاديث التى وضعت فى مختلف الكتب تحت مختلف أبواب الفقه أو المسانيد.

ولنا عودة إلى هذه القضية عند الحديث عن ضرورة إعادة كتابة السنة النبوية فى إطار تجديد الخطاب الدينى .. ولكن ما يعنينا الآن هو قول رسول الله ﷺ:

"فرب حامل فقه ليس بفقيه

ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه

ورب مُبَلَّغ أوعى من سامع".

الذى يحطم الأساس الذى بُنى عليه المنهج السلفى؛ لأن هذا الحديث النبوى الصحيح يقول - بصريح العبارة: إن الأجيال التالية قد تكون أفقه وأوعى (أعلم وأحكم) من الأجيال السابقة؛ مما يعنى أن الخلف قد يكونون أفقه وأوعى من السلف؛ مما يفتح باب الاجتهاد فى فهم النص على مصراعيه أمام جميع الأجيال البشرية حتى تقوم الساعة، ويرث الله العليم الحكيم الأرض ومن عليها.

ومن المحال - عقلًا وشرعًا - أن يستحوذ جيل واحد أو عدة أجيال من البشر على مجموع العلم الإلهى الذى لم يزل يتكشف أمام عقل (فؤاد) الإنسان عصرًا بعد عصر، أو قرنًا بعد قرن بمقتضى الآية القرآنية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: 53].

إن هذه الآية تحطم أسطورة السلفية التى تتكبر على الناس، وتتباهى بتحجرها عند علوم القرون الأولى.

***

وتفضى بنا هذه الأسطورة إلى أسطورة أخرى، يروجها أصحاب الخطاب الدينى، ممن يطلقون على أنفسهم، أو يُطلق عليهم اسم " التيار السلفى"، ألا وهى أسطورة "مذهب السلف الصالح"!!

فكان داعيتهم الشهير ينعق على شاشات الفضائيات: نريد أن نفهم القرآن بفهم السلف الصالح.

والسؤال: من هم السلف الصالح؟

والجواب: لا شك فى أن أول من يجب أن ينطبق عليهم هذا الوصف أو الاسم هم جيل أصحاب النبى ﷺ؛ فهم الجيل الأول الذى حمل إلينا الرسالة، وأدى الأمانة التى حملها رسول الله ﷺ على أكتافهم.

فهل كان هؤلاء السلف الصالح جميعًا على "مذهب واحد" فى أى شىء من قضايا الأحكام الشرعية وتفسير القرآن وشئون السياسة؟!

ومعلوم لكل من له أدنى اطلاع على شىء من علوم الدين، أن أصحاب النبى ﷺ قد اختلفوا فى كثير من القضايا، بدءًا بمن يكون الخليفة (الحاكم) بعد موت رسول الله، وحتى بعد أن استقرت السلطة فى يد أبى بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .. بقيت "غُصة" فى نفوس بعض الطامحين الذين كانوا يرون أنهم الأجدر بها، مثل على بن أبى طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

واختلفوا فى إباحة قتال مانعى الزكاة، الذين أُطلق عليهم "المرتدين"، واختلف عبد الله بن عمر مع عبد الله بن عباس (رضى

الله عن الجميع) فى كثير من أحكام الحج، واختلف ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا - وكان واليًا على البصرة - مع خليفة المسلمين الإمام على بن أبى طالب، عندما أمر بحرق بعض الزنادقة الذين أعلنوا ألوهيته، فاعترض ابن عباس على ذلك.

ونحيل القارئ إلى شرح الحديثين: 3017 و6922 فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

ولا يعنينا الآن مناقشة القضية، ولكن ما يعنينا بيان أن هذين الصحابيين، المشهود لهما بالتفقه فى الدين، قد اختلفا فى هذه القضية الخطيرة.

وليس مفيدًا فى شىء - على الإطلاق - أن نكذب هذا الخبر الوارد فى "صحيح البخارى"، ونتخذ منه مطعنًا نشكك به فى صحة الأحاديث التى أخرجها البخارى رحمه الله فى صحيحه. ولكن الصواب والمفيد أن نقول: إن عليًا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قد أخطأ، وإن ابن عباس قد قال ذلك صراحة ودون مواربة، فالحق أحق أن يتبع، وكما قيل يُعرف الرجال بالحق .. ولا يُعرف الحق بالرجال!

ولماذا نذهب بعيدًا وراء الروايات، وقد شهدت الأرض معارك طاحنة بين أصحاب رسول الله ﷺ، ألم تقع معركة "الجمل" بين

عائشة وبعض الصحابة وبين على بن أبى طالب على الناحية الأخرى؟!

ألم يتقاتل الزبير بن العوام - وهو ابن عمة النبى ﷺ ضد على بن أبى طالب، وهو ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته؟! رضوان الله عن الجميع.

إذن لقد بلغ الاختلاف والخلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ، المشهود لهم بالتقوى حد الاقتتال .. فعن أى مذهب للسلف الصالح يتحدث الدجّالون الذين يزيفون الحقائق لمغانم دنيوية، يعضون عليها بالنواجذ؟!

إننى لا أدعو إلى الحط من شأن أصحاب النبى ﷺ، ولا أنكر فضلهم عند الله سبحانه وتعالى وعلينا؛ إذ حملوا إلى الإنسانية كلها نور الإسلام.

ولكننى أدعو إلى النظر إليهم بعين الإنصاف، باعتبارهم بشرًا يخطئون؛ لأنهم جميعًا من بنى آدم الذين حكم الله - سبحانه وتعالى - عليهم بالوقوع فى الخطأ.

وعندما انتشر الإسلام، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، فإن "العلماء" من شتى الأقطار اختلفوا فى تفسير الآيات القرآنية، وصحة

الأحاديث النبوية، فما صح عند بعضهم، لم يصح عند آخرين، واختلفوا فى الأحكام، فنشأت المذاهب الفقهية والفرق الفكرية والدينية والسياسية. ولم يُعرف "العلماء" والفقهاء إلا عن طريق اختلاف آرائهم (مذاهبهم)، فليس هناك "إجماع" بين العلماء على شىء؛ لأن العلماء يُعرفون باختلاف آرائهم.

فعن أى مذهب للسلف الصالح يتحدث الدجالون، الذين يريدون ركوب ظهر القطيع لأغراض دنيوية؟!

والخلاصة: أن الخطوة الأولى فى طريق تجديد الخطاب الدينى (الإصلاح الدينى)، هى إعادة النظر فى علاقتنا - نحن المسلمين - بالقرآن الكريم، وبإعادة اتصالنا الحميم به عبر العقل (الفؤاد) والوجدان، بالتفكر والتدبر فى آياته، كما دعانا إلى هذا وحضنا عليه القرآن نفسه؛ إذ قال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: 24].

ورؤية القرآن الكريم باعتباره - كما هو فى الحقيقة - نورًا يُضىء لنا الطريق إلى الله سبحانه وتعالى .. وأن الوصول إلى الله سبحانه وتعالى - وهو الحقيقة المطلقة - لا يتم إلا عبر السير فى طريق روحى طويل، عليه منازل .. على العبد الصادق الإيمان أن يمر بها، متمسكًا بالطاعة،

متحليًا بالتواضع والصبر والاستقامة، مروضًا نفسه على الصدق مع النفس ومع الله .. ومن ثم، فإن حديث القرآن الكريم عن التوبة، والإنابة، والتفكر والتذكر والفرار إلى الله، والإشفاق والخشوع والإخبات والتبتل والإخلاص والاستقامة والتوكل والتسليم والصبر والرضا والشكر والصدق والعزم واليقين والإرادة والذكر، والإحسان والعلم والحكمة والبصيرة وتعظيم حرمات الله، والسكينة والطمأنينة وحب الله ... إلخ، ولا يعنينا الآن تفصيل المنازل، ولكن نريد أن ننبه القلوب إلى أنه يُشير إلى منازل الطريق الذى ينبغى للعبد الصادق الإيمان أن يسير فيه حتى يقترب من الله سبحانه وتعالى، ويصل إلى الحقيقة.

و قد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك الطريق حين قال:

"إن هذا الدين متين .. فأوغلوا فيه برفق" [الحديث رقم 2246 فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير للألبانى].

فقوله: "**فأوغلوا**" إشارة أكثر من واضحة إلى ذلك الطريق الروحى الطويل، المفضى بالسالك فيه إلى الله، وأنه يُشبه البحر العميق؛ ولذلك طلب من العبد السائر فيه - أو بالأحرى النازل فيه - أن يتمهل فى سيره، ويتحسب لخطواته قبل أن يُقدم عليها. وهذا هو

مدلول قوله "فأوغلوا فيه برفق"، فالإيغال فى الشىء: التعمق فيه، والرفق يعنى التلطف والتأنى.

والغاية من التمهل (الرفق فى الإيغال) هى النجاة من الضياع والهلاك؛ ولذلك جاءت خاتمة الحديث النبوى الشريف بقوله ﷺ: **"فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى "**.

يعنى: فإن المتعجل - الذى خاطر بالسفر دون أن يحمل الزاد الكافى، وأن يُقدر خطواته - ضاع فى الطريق دون أن يصل إلى ما يُريد؛ فلا هو قطع الطريق الذى دخل فيه، ولا هو أبقى الدابة (الظهر) التى كان يركبها؛ ليرجع إلى حيث كان قبل أن يغامر بالسفر، ويلقى بنفسه إلى الضلال والهلاك، وهذا هو مصير مدعى الإيمان، من أصحاب التدين الزائف، البادى على السطح بمظاهر صارخة زاعقة، دون شىء حقيقى فى القلب.

ولا شك فى أن هذه الرؤية للدين (الإيمان) كما يقدمها القرآن ورسول الله ﷺ، تخالف تمامًا الإطار الفارغ الذى لا يحمل أى صورة، والذى يقدمه أصحاب الخطاب التقليدى السلفى النزعة، الذين ينظرون إلى الدين ومن ثم يقدمونه للناس باعتباره مجرد مسألة حسابية بسيطة تافهة على غرار 1+1=2، وهى مسألة يعرفها بكل

سهولة كل من له أدنى قدر من العقل .. وأن هناك مذهب واحد صحيح، هو المذهب الذى اختاره السلف الصالح، وهو المذهب الذى اختاره الشيخ الداعية (صاحب الخطاب الدينى) بالطبع، وأن كل من يناقش صاحب الخطاب الدينى إنما هو من الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، الذى ينطق به الشيخ وحده، وأن كل من يعترض على شيء مما يقوله الشيخ الداعية، إنما يعترض على ما قاله الله سبحانه وتعالى، وعلى ما قاله رسول الله ﷺ وعلى شريعة الله، وهو كذلك من الذين كفروا وخرجوا من الملة وارتدوا بعد إسلام؛ ومن ثم وجب قتالهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمر – بزعمهم – بقتال الكافرين حتى يؤمنوا، بمعنى من أجل إجبارهم على الدخول فى الإسلام عنوة، وأمر على لسان رسوله ﷺ – بزعمهم – بقتل المرتدين الذين بدلوا دينهم.

***

وهذه هى الصورة الضحلة بالغة السطحية والتفاهة، والمتسمة بالتعالى على الآخرين، والعنف والعدوانية على المختلفين معنا والمخالفين لنا، التى يخرج بها أصحاب الخطاب الدينى من كتب تفسير القرآن الكريم "المعتمدة" التى يدرسونها فى المعاهد والكليات

الشرعية (الدينية) الرسمية، والمراكز الأهلية التى تقوم بتعليم الدين؛ ومن ثم يقوم هؤلاء الشيوخ (أصحاب الخطاب الدينى) بنقل هذه الصورة الشائهة إلى الناس فى المساجد، وأمام شاشات التلفزيون، وأجهزة الكمبيوتر، وقاعات المحاضرات.

و يستقى أصحاب الخطاب الدينى المتشدد، الذين يحملون السلاح ضد المختلفين معهم والمخالفين لهم "علمهم الدينى" من نفس المفاهيم والأقوال المنسوبة إلى نفس الأئمة الأعلام الموجودة فى نفس المراجع "المعتمدة" عند أهل الصنعة من علماء الشرع، والذين لا يملكون مناقشة تلك المفاهيم أو الاعتراض عليها، فضلًا عن تخطئة أولئك "الأئمة الأعلام"، الذين حملوا على أكتافهم من العلم الدينى "المقدس" ما لا تقدر الجبال الشُّمُّ على حمله، كما قال بعض أصحاب الخطاب الدينى فى "وصلة مدح" لعلماء القرون الثلاثة الأولى .. "فمن يجرؤ على التطلع إليهم أو الاقتراب منهم؟!".

وهكذا سنظل ندور فى نفس الحلقة الجهنمية المفرغة، التى تتبادل فيها الأطراف المتصارعة الاتهامات بالجهل والنفاق وخيانة الأمانة والعمالة للجهات التى تُنفق الأموال، وتدبر المؤامرات لحرب الإسلام. وفى هذا العراك يبدو الإرهابيون المتشددون أكثر تدينًا؛

لأنهم الأكثر تمسكًا ببعض أقوال الأئمة الأعلام؛ ومن ثم فهم الأكثر قدرة على جذب الشباب الأشد حماسًا لنصرة الإسلام من باقى الناس والعلماء الذين مردوا على تملق الحكام!!

***

ولا سبيل للخلاص - كما قلنا - إلا بإعادة نظر عميقة وشاملة لمنهج تناولنا وتعاملنا مع القرآن الكريم، والاجتهاد فى تقديم تفسير، بل تفسيرات جديدة لهذا النص المعجزة، الذى جعله الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم الآية الخالدة التى أيد بها رسوله الأعظم ﷺ.

نحن فى أمس حاجة إلى تفسيرات جديدة، يضطلع بها "علماء حقيقيون"، وليس مجرد حُفاظ يتقيأون ما قرأوه وما سمعوه من قبل .. يجيبون فيها عن الأسئلة الجوهرية التى تواجه الإنسان فى سيره فى هذه الحياة الدنيا نحو مصيره.

وتُجيب عن الأسئلة الملغزة الحائرة التى تدور فى قلب المسلم المعاصر فى مطلع القرن الحادى والعشرين بعد ميلاد المسيح، ولا تنشغل بالقضايا التى شُغلت بها أذهان الناس فى القرون الماضية والمسائل الفرعية التى سودت فيها مئات الصفحات.

تفسيرات تُزيل غموض النص، وتجمع أشتات الآيات التى تتناول موضوعًا واحدا، وتستفيد من عطاء علوم العصر الذى يشهد ثورة، بل ثورات فى آفاق المعرفة.

تفسيرات تتطهر من الإسراف السفيه فى لعبة "الناسخ والمنسوخ"، ومن الاتكاء المريض على ما سمى بأسباب النزول، ومن القسوة (غلظة القلب) وروح التسلط والعدوان على "الآخرين"، حتى إن كانوا مسالمين يجنحون للسلام، ويرغبون فى حسن الجوار.

***

وحتى نرى تلك التفسيرات (الرؤى) الجديدة المنشودة، فإننا نتضرع إلى أصحاب الخطاب الدينى من أهل صنعة العلوم الشرعية أن يخففوا قليلًا من غلواء تكبرهم واستعلائهم على غيرهم من الناس، وأن تتسع صدورهم للاستماع للآراء التى تختلف أو تُخالف ما تعلموه من مراجعهم "المعتمدة" عندهم، وأن يكونوا مستعدين للمناقشة والجدال بالتى هى أحسن، وألا يجدوا فى أنفسهم غضاضة من أن يتعلموا من "غيرهم"، الذين يسمونهم عوام الناس ممن لم يحصلوا على شهادات الاختصاص وإجازات رواية العلم؛ فلعل الله - سبحانه

وتعالى - يكون قد أفاض على بعض أولئك العوام غير المختصين بشيء من علمه وحكمته.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: 2].

فإن ذلك الاستعلاء من الكبر الذى يحرم صاحبه من الجنة، ويمقته الله سبحانه وتعالى أشد المقت، يوم تجد كل نفس ما عملت محضرًا.

وعليهم أن يكفوا عن "إرهاب" الناس من محاولة فهم القرآن الكريم؛ بدعوى أن فهم آياته ومعرفة معانيها تحتاج علمًا كثيرًا تنوء بحمله الجبال الرواسى؛ ولذلك يجب أن يكفوا - بزعمهم - عن محاولة الفهم، وأن يكتفوا باتباع ما قاله "الأئمة الأعلام"، الذين حملوا عن الناس مؤنة البحث والفهم، وقدموا إليهم العلم بسيطًا ميسرًا، كأنه "بيضة مقشرة"، يقدمها أصحاب الخطاب الدينى جاهزة للأكل والهضم .. فلماذا تتعبون أنفسكم وتجهدون عقولكم، وقد جئناكم بالعلم سهلًا طريًّا.

وكإجراء عملى سريع ومباشر، فإننى أقترح أن يمتنع الأزهر الشريف عن فرض تفسير معين على طلبته ليكون منهج علم التفسير؛ بل يطلب من كل طالب على كافة مستويات وسنوات الدراسة أن يجتهد فى تفسير بعض الآيات، ويقترح له المراجع التى يمكنه الاستعانة بها .. ويكون تقدير الطالب حسب قدرته على فهم واستنباط المعانى، والتعبير عنها دون أخطاء، وتتم مناقشته فى ذلك، هذا على مستوى الدراسة الجامعية والدراسات العليا.

إن هذا الإجراء البسيط سيعيد الاتصال المباشر والحميم بين الطالب (الإنسان) والقرآن.

وسيدرب الطالب على سلوك البحث عن العلم، وإعمال العقل، ونقد النصوص، وحرية التعبير .. وهذا ما نحن فى أشد الحاجة إليه، وهذا بالضبط هو سبيلنا للخروج من براثن التخلف والجمود، والأسلوب الناجح الوحيد فى القضاء على الإرهاب.

❋❋❋

الباب الثاني

تدوين جديد للحديث النبوي

الباب الثانى

تدوين جديد للحديث النبوي

ونتنقل الآن إلى الخطوة الثانية فى طريق تجديد الخطاب الدينى (إصلاح العلوم الشرعية)، ألا وهى إعادة كتابة السنة النبوية؛ فنحن – فى الحقيقة – فى أمسّ حاجة إلى بدء عصر جديد لتدوين الحديث النبوى الشريف.

ولبيان ذلك نقول:

لا يجادل أحد من العقلاء فى أن أحاديث رسول الله ﷺ قد انتقلت عبر الأجيال تراثًا شفهيًّا غير مكتوب، إلا القليل النادر الذى لا يُعتد به ولا يُعتمد عليه فى معرفة السنة النبوية، التى تعنى طريقة رسول الله ﷺ فى طاعة الله سبحانه وتعالى، وتطبيق شريعته الواردة (النازلة) فى القرآن الكريم، وفى ممارسة الحياة.

يعنى فى كلمة واحدة معرفة "الحكمة" التى أوحاها الله (سبحانه وتعالى) إلى رسوله ﷺ، التى ورد ذكرها صراحة فى قوله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم مخاطبًا نساء النبى، قائلًا لهم:

﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب:34].

آيات الله: آيات القرآن الكريم، التى كانت تتلى (ينطق بها باللسان حفظًا من الصدور) فى بيوت النبى عند الصلاة والوعظ والفتيا.

"**الحكمة**": أقوال رسول الله ﷺ التى أوحاها الله (سبحانه وتعالى) إليه؛ لبيان القرآن وإرشاد الناس إلى الطريقة المقبولة عند الله فى ممارسة الحياة.

"**إن الله كان لطيفًا**": حاضرًا معكم، ولكن يخفى عن إدراك حواسكم.

"**خبيرًا**": يسبق علمه بكم وبأعمالكم علمكم بها، فهو يعلمها قبل أن تقوموا بها، وقد كتبها فى كتاب علمه (اللوح المحفوظ) قبل أن يخلقكم فى هذه الدنيا.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن كتابة أقواله (أحاديثه) فى نص صريح، لا يشك فيه أحد ممن نال قدرًا من العلم، فقال:

"**لا تكتبوا عنى شيئًا إلا القرآن، فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه! .. وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**" [الحديث رقم 7434 فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير"، من إعداد: محمد ناصر الدين الألبانى، وقد اقتطعت الجملة الأخيرة من الحديث: "من كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" وذكرت كحديث نبوى مستقل عشرات المرات، بل مئات المرات فى مختلف مراجع الحديث النبوى).

ماذا نستنبط من هذا الحديث النبوى الصحيح؟:

1 – نستنبط النهى الصارم عن كتابة الأحاديث النبوية؛ إذ قال: لا تكتبوا، ثم قال: فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه.

فكل الذين يزعمون أن بعض صحابة النبى ﷺ قد كتبوا الأحاديث النبوية مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنهم يزعمون – فى الحقيقة – أن هؤلاء الصحابة قد عصوا رسول الله ﷺ، وخالفوا النهى (الحظر) الصارم عن الكتابة: "لا تكتبوا ... فليمحه".

2 – ونستنبط الأمر بالتحديث عنه ﷺ، أعنى نقل ما قاله شفاهة عبر السماع، وليس عن طريق الكتابة، وقد ذكرنا من قبل الحث على نقل الحديث.

3 – ونستنبط التمييز الواضح بين القرآن الكريم الذى أمر رسول الله ﷺ بكتابته؛ بل وأشرف بنفسه على "كُتّاب الوحى" وهم يقومون بتدوينه على الصحف المصنوعة من العظام والورق والجلود ولحاء الشجر.

ومن ثم فقد كان القرآن الكريم نصًّا مكتوبًا على عهد رسول الله ﷺ، وصار "مصحفًا" مدونًا فيه آيات الله على عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم وُضعت النقط على الحروف على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم انتقل هذا النص المكتوب عبر المكان إلى البلاد التى دخلها الإسلام، وعبر الزمان إلى الأجيال التى لم تشهد تنزيله من السماء (الغيب) إلى الأرض (الشهادة).

هكذا صار القرآن الكريم نصًّا مكتوبًا ووثيقة تاريخية صحيحة، لا يشك أحد من العقلاء فى نسبتها إلى النبى محمد ﷺ. ولذلك فليس هناك قرآن برواية أبى بكر الصديق وآخر برواية على بن أبى طالب،

ونص ثالث برواية ابن مسعود ... إنه نص واحد، لا يشك أحد فى نسبته إلى النبى الذى قال إن الله قد أوحاه إليه.

وذلك على خلاف أقوال رسول الله (الأحاديث النبوية) التى انتقلت كتراث شفهى من الألسنة إلى السماع عبر الأجيال، حتى جاء عصر التدوين مع مطلع القرن الثانى الهجرى؛ حيث كانت الحاجة إلى تدوين (كتابة) تلك الاحاديث النبوية؛ لمعرفة أحكام الشريعة (القواعد العامة) التى تنظم حياة الناس، ومعرفة حياة رسول الله ﷺ، الذى ينبغى اتخاذه قدوة (مثلًا أعلى) للمسلمين ممن لم يشهدوا حياته، ولم يسمعوا منه.

وكان المسلمون يفتحون البلاد، ويخوضون حروبًا ضد القوى الاستعمارية الكبرى: الإمبراطورية البيزينطية (الروم)، والإمبراطورية الساسانية (الفرس)، ويؤسسون دولة (سلطة سياسة) كبرى.

فاحتاجوا إلى الاستضاءة بحكمة الرسول ﷺ؛ للاسترشاد بها فى مواجهة المشكلات، وحل المسائل التى اعترضت طريقهم وهم ينشئون دولتهم، التى تتسع سيادتها على الأرض، وتواجه الكثير من التحديات والمصاعب.

***

لقد بدأت المشاكل الكبرى والمسائل الصعبة باختيار من يخلف رسول الله ﷺ فى الحكم .. فبعد وفاة رسول الله ﷺ بلحظات، ولم يكن الجثمان الشريف قد أُعد وجُهّز للدفن، انفجر السؤال: من يكون خليفة رسول الله ﷺ فى الحكم؟

الأنصار يجتمعون فى سقيفة (نادى) بنى ساعدة (فرع من قبيلة الخزرج)؛ لاختيار الخليفة (الحاكم) منهم؛ لأنهم يرون أنهم الأجدر بالصعود إلى سدة الحكم؛ لأنهم هم الذين آووا رسول الله ﷺ، وتعهدوا بحمايته وتمكينه من القيام بإبلاغ رسالة ربه إلى الناس، وعلى أرضهم (يثرب) قامت الدولة (السلطة السياسية) الإسلامية الأولى .. وبالطبع كان زعيم الخزرج سعد بن عبادة هو المرشح لتولى المنصب؛ لأن الخزرج أكثر عددًا من الأوس؛ فقد كان الخزرج يبلغون ما يقرب من ثلاثة أضعاف الأوس؛ فالأغلبية لهم، والخليفة لابد أن يكون منهم.

وأسرع رجل من الأوس (المنافسين التقليديين للخزرج) يبلغ زعماء قريش بما يجرى فى سقيفة بنى ساعدة، وكان هؤلاء الزعماء الكبار هم: الصديق أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وحدث الجدال الشديد بين الأنصار بزعامة سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين المهاجرين من قريش، الذين مثلهم أولئك الثلاثة العظام.

وانتهى ذلك الجدال الشديد - الذى ذكرته كل كتب السيرة النبوية ومراجع الحديث - باختيار أبى بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفة (حاكمًا) للمسلمين.

ولا شك فى أن الحديث النبوى الشريف الذى أقنع الأنصار بالتنازل عن حقهم أو مطالبتهم بالخلافة، وأجبر سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على التخلى عن طموحه مرغمًا، هو الحديث الذى ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى جزء منه:

"إن هذا الأمر (الحكم) لا يزال فى قريش، لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله على وجهه فى النار"

ثم مضت أيام "الخلافة" الراشدة بمقتل على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى سنة 40 هـ، وانتشر المسلمون فى شتى الأرجاء، وانتقل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأمصار (البلاد المفتوحة)، وجلسوا فى المساجد؛ يعلمون الناس دين الإسلام، ويذكرون أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التى سمعوها بأنفسهم، أو قيلت لهم من أصحابهم الموثوق

فيهم. وغنى عن البيان أن الصحابى عندما يذكر حديثًا للنبى، فإنه يذكره على قدر ما أسعفته ذاكرته البشرية القابلة للخطأ والنسيان، وعلى السبب (الحدث) الذى استدعى التذكر، وعلى حسب قدرته على التعبير عن المعنى الذى فهمه من "حديث" رسول الله ﷺ؛ ولذلك تعددت الروايات، وتناثرت الأجزاء لنفس الحديث النبوى الواحد، وإذا أردنا أن نضرب مثلًا يوضح ما نقول، ويتعلق بمسألة بالغة الأهمية، ألا وهى مسألة الخلافة .. فإننا نذكر هذا الحديث النبوى الذى أشرنا آنفًا إلى جزء منه.

إن "أصل" هذا الحديث، أعنى الكلمات التى خرجت من رسول الله ﷺ ترجع إلى وقت تقسيم غنائم غزوة حنين بأرض الجعرانة بعد العودة من حصار الطائف فى شهر ذى القعدة من العام الثامن، بعد فتح مكة، وفى سياق استكمال هذا الفتح .. حيث حدث اعتراض شديد من الأنصار بزعامة سعد بن عبادة على قسمة رسول الله ﷺ للغنائم؛ إذ ظنوا أنه قد جامل قومه وأهله من قريش، وأنه سيمكث فى مكة (موطنه الأول) بعد أن فتحها، ويهجر المدينة المنورة (يثرب) التى احتضنه أهلها (الأنصار) فى زمن الاستضعاف، عندما جاء إليها مع المسلمين فارين من بطش قريش.

ورأى رسول الله ﷺ - بنور النبوة وحكمة القائد المحب لأمته- جذوة الصراع الذى سينشب لا محالة حول الخلافة، فأراد أن يرشد الأمة - دون أن يحجر على حقها فى الاختيار - إلى أن اختيار الخليفة من قريش هو الأفضل لها فى زمن نشأة الدولة (السلطة السياسية)، فاجتمع مع قادة الأنصار على حدة، وأخذ عليهم "البيعة" ألّا ينازعوا الأمر (الحكم) أهله.

كان ذلك فى قبة (خيمة صغيرة)، دعا إليها الأنصار وحدهم بعد انتهاء أزمة تقسيم غنائم حنين بالجعرانة، ولقد اختلطت هذه البيعة (بيعة التنازل عن المطالبة بالحكم) مع البيعة الأولى (بيعة العقبة الكبرى) التى عقدها رسول الله ﷺ مع الأنصار قبل الهجرة، وبناءً عليها هاجر إلى المدينة .. ولكن هذه مسألة أخرى لن نتناولها الآن.

ثم جمع الناس، الأنصار والمهاجرين (أهل مكة) وغيرهم، وقال لهم فى حديث طويل، أو خطبة جامعة:

"يا أيها الناس قدموا قريشًا ولا تَقَدَّموها فتهلكوا، لا تتخلفوا عنها فتضلوا، وتعلموا مِن قريش ولا تعالموها، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لخيارها عند الله رب العالمين.

الناس تبع لقريش فى هذا الأمر (الحكم أو الخلافة)**؛ مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم.**

إن هذا الأمر لا يزال فى قريش ما بقى من الناس اثنان، لا يعاديهم أحد إلّا كبه الله على وجهه فى النار .. ما أقاموا الدين.

ألا إن الأئمة (الحكام أو الخلفاء) **من قريش، ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك، ما عملوا فيكم بثلاث: عدلوا إذا حكموا، ووفوا إذا عاهدوا، ورحموا إذا استرحموا ..**

ثم توقف قليلًا، وقال: **وأقسطوا إذا قسموا، فمن لم يفعل ذلك منهم، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل.**

ثم توجه بالخطاب إلى قريش:

يا معشر قريش!، لا يزال هذا الأمر فيكم، وأنتم أولى الناس به ما كنتم على الحق، ولم تحدثوا (تغيروا)، فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم (يقشركم بمعنى يهلككم ويبيديكم)، **كما تُلحى هذه الجريدة.**

و أمسك بفرع جاف من نخلة، وأخذ ينزع الأوراق الصفراء الجافة ويقذفها فى الهواء ..

ثم توجه إلى باقى الناس من الأنصار وغيرهم، فقال لهم:

استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإن لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم، فأبيدوا خضراءهم، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء".

هذا هو نص الخطبة النبوية التى قالها رسول الله ﷺ؛ ليرشد الأمة الإسلامية – حينذاك – إلى أن يكون الخليفة من بعده من قريش، والتى لا شك فى أن أبا بكر الصديق قد ذكرها أو ذكر بعضًا منها؛ ليقنع إخوته من الأنصار بأن يتنازلوا عن المطالبة بالخلافة (الحكم).

وقد جمعنا نص هذه الخطبة من عشرات الروايات التى أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث 3500،3501، 3495، ، 7139، 7140 فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى"

والروايات التى أوردها الأستاذ محمد ناصر الدين الألبانى فى الأحاديث التى أخذت الأرقام 2758،2788، 3482، 4383، ، 4390، 4391.

ونفهم من هذا أن الحديث النبوى الواحد، أو خطبة الرسول ﷺ فى هذا المقام قد تقطعت أوصالها، وتناثرت أشلاؤها (أطرافها) تحت مختلف العناوين (التراجم) على أبواب الفقه المختلفة، فى مختلف

مراجع الحديث النبوى (صحيح البخارى - صحيح مسلم - سنن أبى داود، والترمذى، وابن ماجه، والنسائى - ومعاجم الطبرانى - ومسند ابن حنبل ...)، وصرنا أمام عشرات الأحاديث النبوية التى لا تعدو أن تكون فى الحقيقة مجرد جزء (طرف) من حديث نبوى واحد، أو خطبة قد تم تجزئتها (تقطيعها)، وروى كل جزء (قطعة) بعدة طرق وصياغات مختلفة، باعتباره حديثًا نبويًا مستقلًا بذاته، بعد أن نُزع من سياقه النصى (باقى الحديث أو الخطبة)، وسياقه التاريخى (الحادث الذى قيل فيه الحديث).

***

فى عهد معاوية بن أبى سفيان - عندما صار ملكًا على المسلمين بعد مقتل على بن أبى طالب - جلس عبد الله بن عمرو بن العاص فى المسجد يُعلم الناس دين الإسلام، ويذكر لهم بعض أحاديث رسول الله ﷺ التى سمعها أو تأكد من قول الرسول لها، فذكر الحديث الذى يقول: **"لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان** (قبائل اليمن) **يسوق الناس بعصاته"**.

فجاء أناس من قريش، فأبلغوا معاوية بن أبى سفيان بما يقول عبد الله بن عمرو بن العاص، من أنه سيكون ملك من قحطان،

فغضب معاوية، وقام فى وفد قريش خطيبًا، فقال بعد أن أثنى على الله بما هو أهله:

أما بعد فإنه بلغنى أن رجالًا منكم يتحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، فأولئك جهالكم، فإياكم والأمانى التى تضل أهلها، فإنى سمعت رسول الله يقول: "**إن هذا الأمر لا يزال فى قريش ما بقى منهم اثنان، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين**".

هذه هى الصياغة (الرواية) التى جمعناها من أربعة أحاديث، رواها البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب وكتاب الأحكام، وأخذت الأرقام: 3500، 3501، 7139، 7140.

وهى - كما ترى - ليست إلا قطعة صغيرة من خطبة النبى ﷺ، انتزعها معاوية بن أبى سفيان من سياقها النصى، أعنى باقى الخطبة التى ذكرت واجبات قريش عندما تتسلم الحكم على نحو تفصيلى، وتوعدت حكام قريش باللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين إن غيروا سنة النبى ﷺ، وتنبأت لهم بالهلاك وزوال الملك والأثر.

كل ذلك لم يذكره معاوية؛ لأنه لم يكن مهتمًّا إلا بإيصال رسالة واضحة تقول إن الحكم ينبغى أن يبقى فى قريش بأمر رسول الله

ﷺ؛ لأنه كان مشغولًا بالحفاظ على ملكه، شديد التحسس للأخطار الظاهرة والباطنة التى يمكن أن تتهدده.

وانتزع البخارى وسائر أئمة علم الحديث هذه القطعة من خطبة النبى من سياقها النصى، ومن سياقها التاريخى، فلم يذكروا لنا الحادث (الواقعة التاريخية) الذى قال فيه رسول الله هذا الحديث، بل رووا هذا الجزء (الطرف) من الخطبة كحديث نبوى مستقل قائم بذاته؛ لأن أحاديث النبى دونت بمعزل عن أحداث السيرة النبوية، كأنها أقوال قيلت فى فضاء خارج الزمان والمكان.

وتعددت الروايات (الصياغات اللفظية) لهذه القطعة بالحذف والإضافة وتغيير الألفاظ المعبرة عن المعانى التى فهمها الرواة.

ولذلك جاءت رواية البخارى مثلًا بلفظ "ما بقى منهم اثنان"، والضمير يعود فى النص إلى قريش، وهو معنى غامض أو غير مفهوم .. ولكن الرواية (الصياغة) التى اختارها الإمام مسلم كانت أصح وأدق من حيث المعنى؛ إذ جاء فيها: "ما بقى من الناس اثنان"، وهى صورة بلاغية (مجازية)، تهدف إلى تأكيد أحقية وجدارة قريش بإمامة الناس.

وأحب أن أُحيل القارئ إلى مقدمة كتابى "شرعية الأحزاب السياسية" التى أخذت عنوان: تأصيل وتمهيد، ص 5-32.

❊❊❊

ثم جاء الفقهاء ليستندوا إلى تلك القطعة المنتزعة من سياقها النصى وسياقها التاريخى؛ ليقيموا أحكام الفقه الإسلامى، أو أحكام شريعة الله بالاستناد إلى هذه القطعة الصغيرة، أو الطرف المنتزع من حديث رسول الله ﷺ.

وكان حتمًا مقضيًّا - بناء على هذا الأساس الواهى - أن تقع الأخطاء الفادحة؛ بل الخطايا الفاضحة، التى أشعلت نار الخلافات فى التاريخ الإسلامى.

فعلى سبيل المثال، ظل الفقهاء يشترطون فى الخليفة - أو ما يطلقون عليه صاحب الإمامة العامة - أن يكون قرشيًّا؛ لحديث رسول الله الذى قال: **"إن هذا الأمر فى قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله تعالى على وجهه فى النار"**، غافلين أو متغافلين عن بقية الحديث النبوى الذى ذكر شروط الأحقية والجدارة، وتوعد المخالفين باللعنة، وتنبأ بهلاكهم.

وغفلوا أو تغافلوا عن أحاديث نبوية أخرى صحيحة بشروط أهل الحديث، قال رسول الله ﷺ فيها:

"أول من يبدل سنتى رجل من بنى أمية"

وهو الحديث رقم 2582 فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير"، من إعداد الأستاذ محمد ناصر الدين الألبانى، الذى يعتبره السلفيون المعاصرون إمام أهل الحديث فى هذا العصر الذى لا يُشق له غبار، ولا يجرؤ أحد على مناقشة أو نقد تقديراته وأحكامه.

و قال ﷺ: **"هلاك أمتى على يدى غلمة من قريش"**.

وهو الحديث رقم 7038 فى نفس المصدر الذى ذكر أن البخارى والإمام أحمد بن حنبل قد أخرجاه وهو فى رتبة الصحيح .. ولفظ أمتى هنا يعنى سنتى، فتأمل!!

وقال ﷺ: **"أسرع قبائل العرب فناءً قريش، يوشك أن تمر المرأة بالنعل فتقول: هذه نعل قرشى"**.

وهو الحديث رقم 962 فى نفس المصدر، وهو فى رتبة الصحيح، وذكر الألبانى أن الإمام أحمد بن حنبل قد أخرجه فى مسنده، عن أبى

هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الألبانى نفسه فى سلسلة "الأحاديث الصحيحة".

والسؤال: إذا كانت قريش - كما تنبأ النبى ﷺ - أسرع الناس فناءً، يعنى سيفقد أثرها وينمحى نسبها أسرع من القبائل العربية الأخرى، فلماذا أجمع الفقهاء القدامى والمحدثون حتى القرن العشرين الميلادى على أنه يشترط أن يكون الخليفة (صاحب الإمامة العظمى) قرشيًّا؟! لأن رسول الله ﷺ أمر بذلك!!

***

ثم جاء المؤرخون وكتاب التراث، فظلوا مئات الأعوام يحدثوننا عن الخلافة الأموية (الخلفاء من بنى أمية)، والخلافة العباسية (الخلفاء من بنى العباس)، بل والخلافة العثمانية (الخلفاء من بنى عثمان التركى، وليس عثمان بن عفان)رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، التى يحاولون إحياءها هذه الأيام.

وقد غفلوا أو تغافلوا عن قول رسول الله ﷺ، الذى وضع حدًا لزمن الخلافة بمقتل على بن أبى طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فى العام الأربعين بعد الهجرة، أى بعد ثلاثين سنة من موت النبى ﷺ، الذى قال:

"الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك".

الحديث رقم 3341 فى نفس المصدر.

وجاءت روايات أخرى بلفظ **"ثم ملك عاض"**، أو **"ملك عضوض، يؤتى الله ملكه من يشاء"**.

"عاض" أو عضوض يعنى يحض (يغرى ويغوى) صاحبه الحريص عليه بالعض عليه بالنواجذ، كما يعض الحمار على حزمة الحشيش أو الحطب، لا يستطيع أحد أن يستنقذها من بين أسنانه.

وهو تصوير رائع البلاغة، يبين الحرص الشديد على الملك الذى يبعث صاحبه على الطغيان والبطش، غير عابئ بشىء إلا بقاء الحكم (السلطة) فى يده، أو بالأحرى بين أسنانه.

وبنص هذا الحديث "الصحيح"، والصريح فى معناه، لا يستحق أحد ممن تولى الحكم (الإمامة السياسية) بعد على بن أبى طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اسم الخليفة أو أمير المؤمنين، والخلافة - هنا - تعنى الحكم الرشيد، أى طريقة ممارسة السلطة على نحو يشبه أو يقترب من طريقة ممارسة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها؛ ومن ثم، فالحاكم - فى هذه الحال - يصح أن يوصف بأنه خليفة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أى نائب له أو وكيل عنه فى إدارة شئون الأمة، ولا أحد بعد ثلاثين سنة من موت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعنى بعد مقتل علىّ فى سنة 40 هـ - يستحق اسم "الخليفة"

وأعتقد أننا بعد هذه الرحلة مع حديث نبوى واحد، أو خطبة واحدة، قيلت فى حادثة واحدة أو مقام واحد، ورأينا كيف تمزقت أوصالها، وتناثرت أطرافها، وتعددت رواياتها .. أعتقد أننا قد أصبحنا فى أمسِّ الحاجة إلى إعادة كتابة (تدوين) السنة النبوية على نحو جديد، يخالف الأساليب الماضية التى اتبعت فى تدوين الأحاديث النبوية من قبل؛ وذلك من أجل تجديد الخطاب الدينى، الذى يعنى إصلاح العلوم الشرعية، بتنقيتها من الأخطاء التى وقع فيها السابقون، وجعلها "ميسرة" أمام العقل المعاصر، باعثة له على التفكر والتدبر فيها؛ لتكون له مصباحًا منيرًا يهديه الطريق إلى الله.

***

وأول عمل ينبغى القيام به فى هذا السبيل هو تهذيب مراجع الحديث النبوى المعتمدة عند أصحاب العلوم الشرعية (الخطاب الدينى).

وأعنى بالتهذيب حذف السند (سلسلة الرواة)، والاكتفاء بالراوى الأعلى الذى سمع من رسول الله ﷺ مباشرة.

ومنع التكرار ودمج الروايات المختلفة فى رواية واحدة تكون هى الأبلغ من ناحية الأسلوب، والأوعى من ناحية المضمون، أعنى الأكثر اشتمالًا على المعلومات (الأخبار).

وإذا أردنا أن نضرب مثالًا يوضح ما نريد نقول:

إن الإمام البخارى - رحمه الله - قد كرر نفس الحديث النبوى بروايات (صياغات لفظية) مختلفة، وجزأه إلى أطراف؛ ليضع كل جزء (طرف) تحت العنوان - الذى يسمونه (الترجمة) - الملائم الذى اختاره لأبواب الفقه التى وزع الأحاديث النبوية عليها .. فيروى الحديث مرة مختصرًا اختصارًا شديدًا، وصفه الإمام ابن حجر نفسه - وهو أعظم شارح لصحيح البخارى – بأنه اختصار مخل مجحف، ومرة يرويه مطولًا، وهو نفس الحديث، ولكنه كان - رحمه الله - يريد الاستجابة لفروع الفقه التى توسع فيها توسعًا مسرفًا لا لزوم له، وأراد أن يفى بمقتضيات التراجم (العناوين) التى جعلها على رءوس أبواب الفقه، فكرر أول الأحاديث فى صحيحه (حديث: إنما الأعمال بالنيات) سبع مرات، فأخذ الأرقام (1، 54، 2529، 3898، 5070، 6689، 6953).

وخطبته يوم جاء وفد بنى تميم وبنى أسد (الأعراب)، والتى نهى فيها عن تحين وقت شروق الشمس أو غروبها لأداء الصلاة، جزأها الإمام البخارى، ونثرها فى واحد وثلاثين موضعًا (حديثًا)، أخذت الأرقام (581-582-584-585-586-587-588-589-1037-1188-1192-1195-1197-1864-3272-3273-3279-3301-3302-3498-3499-3511-4387-4388-4389-4390-5303-7092-7093-7094) فى مختلف الكتب (كتاب الصلاة، كتاب بدء الخلق، كتاب الأحكام ...)، وتحت مختلف العناوين.

وخطبته عندما كسفت الشمس يوم موت ابنه إبراهيم من مارية القبطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نثرها البخارى فى زهاء أربعة وخمسين موضعًا، أخذت أربعة وخمسين رقمًا!!

ولذلك بلغ عدد الأحاديث فى الجامع الصحيح للبخارى 7564 حديثًا، تصيب القارئ - إن افترضنا أن أحدًا من عموم الناس سيقوم بقراءة الجامع الصحيح للإمام البخارى بكامل نصه من الجلدة إلى الجلدة كما يقال - بالضجر والاضطراب الفكرى والتشتت، فلا يخرج منها بشىء يُعتد به فى معرفة الطريق إلى الله.

ولذلك وُضعت مراجع الحديث الشريف على أرفف المكتبات الفخمة، العامة والخاصة، يتباهى الناس باحتواء مكتباتهم على "أمهات" الكتب، ولكنهم لا يقربونها بالقراءة والتدبر، ويكتفون بسماع " العلم" من الدعاة والوعاظ والعلماء أهل الحديث الشريف، الذين يقدمون لهم ثمار السنة النبوية مطبوخة مطهوة على مواقد وموائد أهل الصنعة من أصحاب الخطاب الدينى أو العلوم الشرعية، دون أن يُتعب السامع نفسه بالقراءة والتفكر والتدبر!!

إننا بكل تأكيد لا ندعو إلى حرق كتب السنة - كما يدعو الحمقى من أدعياء التنوير الزائف - ولا إلى منع طبعها وتداولها، ولكن ندعو إلى إعادة تدوينها بأسلوب يلائم العصر، بحذف السند، ومنع التكرار، ودمج الروايات المختلفة فى رواية واحدة.

إذا صنعنا ذلك مع الجامع الصحيح للإمام البخارى فسوف نحصل على كتاب واحد، يحتوى على ما يقرب من سبعمائة حديث فقط بعد حذف الأحاديث التى لم تُنسب إلى رسول الله ﷺ؛ فإن صحيح البخارى يحتوى على أقوال للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولم تُرفع إلى النبى.

ويكون ذلك الكتاب المنشود بعنوان "أحاديث النبى ﷺ كما أخرجها الإمام البخارى".

وإذا صنعنا ذلك مع بقية مراجع الحديث النبوى المعتمدة، فسوف نحصل على كتب متشابهة، وسوف نكتشف أن أغلب الأحاديث الموجودة فى كل كتاب هى نفس الأحاديث التى وردت فى الكتب الأخرى؛ ومن ثم يمكننا أن ندمج كل تلك الكتب أو الروايات فى كتاب واحد أو رواية واحدة، يكون عنوانها "هكذا تحدث رسول الله ﷺ".

وإذا أنجزنا هذا العمل الكبير، نكون قد أتحنا سنة (حكمة) رسول الله ﷺ أمام الناس؛ لينهلوا من حكمته، ويستضيئوا بها، ويستعينوا على سيرهم إلى الحقيقة.

***

فما الذى يحول بيننا - نحن المسلمين - وبين هذا العمل العظيم؟

يحول بيننا أصحاب الخطاب الدينى ذوو الأصوات العالية، الذين لا يحسنون شيئًا سوى "**تسميع**" ما حفظوه من "العلم"، غافلين أو متغافلين عما حدث فى التاريخ، وما يحدث فى الحاضر والمستقبل من

تغييرات هائلة، تشعل أسئلة ملغزة حائرة، تبحث عن إجابات شافية لما فى الصدور.

والذين يتقاعسون عن إعمال عقولهم، والاجتهاد فى فهم النصوص المقدسة، والتمييز بين ما هو "وقتى" من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله المتعلقة بحياته الدنيوية ومعيشته اليومية وأحداث سيرته الشخصية، التى لن تتكرر مع غيره من الخلق، والتى ليست محلًّا للاقتداء، وبين سنته (حكمته) المرفوعة مثلًا أعلى للناس؛ من أجل أن يهتدوا به فى حياتهم "الدينية".

والذين من مصلحتهم الدنيوية أن يبقى هذا الحجاب الكثيف أو السد المنيع المتين بين الناس، وبين أحاديث رسول الله ﷺ .. ذلك الحجاب الذى تصنعه براثن الروايات المختلفة، وأحابيل الخلافات التى تفنن الأئمة الأعلام فى اختلاقها إن لم يجدوها!!

إن ذلك الحجاب يمنح أصحاب الخطاب الدينى من أهل صنعة العلوم الشرعية المكانة والسلطة عند الناس، الذين لا يجدون فى وسعهم خوض غمار الروايات المختلفة والمتضاربة وأحكام الجرح والتعديل للرجال، وتفريع القضايا المفترضة التى صنعها "الخيال"،

وتفنيد آراء الخصوم، وترجيح أقوال الأصحاب من أهل نفس المذهب.

فيبقى الناس على جهلهم، ويبقى لأهل الصنعة سلطانهم.

إننى - بالطبع وبكل تأكيد - لا أدعو إلى أن يصبح الناس جميعًا من "العلماء" بأمور الدين (الشرع)؛ فإن علوم الدين تتطلب حقًّا أن يتفرغ لها بعض الناس؛ ليتفقهوا فيها كما قال القرآن الكريم:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: 122].

ينهى عن خروج جميع الناس القادرين على القتال إلى الحرب، ويأمر ببقاء فرقة من كل طائفة؛ تكون مهمتها ووظيفتها "التفقه فى الدين"؛ من أجل أن يكونوا المرجع الذى يسأله الناس عن أمور دينهم؛ لعلهم يحذرون الوقوع فى معصية الله.

ولكننى أدعو إلى إعادة كتابة العلوم الدينية، خاصة الأحاديث النبوية على النحو الذى وصفنا آنفًا معالمه، متخلصين من العيوب التى

وقع فيها السابقون، خاصة الأحكام التى أقيمت على الأهواء بشأن جرح أو تعديل أشخاص الرواة، دون النظر إلى "المتن" الذى رووه.

وأدعو أصحاب الخطاب الدينى إلى الشجاعة العلمية فى مواجهة الأخطاء والخطايا التى وقع فيها السابقون من "سلفنا الصالح"، وإلى التواضع واتساع الصدر فى تقبل النقاش والاختلاف، دون المسارعة إلى التكفير.

وأدعو القارئ الكريم إلى مطالعة ما سبق لى إصداره من دراسات، حاولت فيها تقديم نموذج للمنهج الذى أدعو إلى اتباعه فى تناول الأحاديث النبوية، خاصة كتاب: "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة"، وكتاب: "شرعية الأحزاب السياسية فى القرآن والسنة".

* * *

الباب الثالث

إنشاء فقه جديد

الباب الثالث
إنشاء فقه جديد

ونتقل الآن إلى الخطوة الثالثة فى طريق تجديد الخطاب الدينى .. ألا وهى تجديد (إصلاح) الفقه الإسلامى.

ونبدأ بذكر هذا السؤال: هل يجوز للإمام (الحاكم) ضرب الأعداء بالمنجنيق؟

ولا شك فى أن أغلب الناس، حتى المتعلمين منهم الذين نالوا شهادات جامعية، سيسألون على الفور عن المنجنيق، ما هو؟

فتصور – عزيزى القارئ – أن هذا السؤال يقدم لطالب المرحلة الإعدادية فى المعاهد الأزهرية!!

والقضية الجوهرية ليست فى إعطاء معنى لفظ المنجنيق، فنقول: هو آلة حربية تشبه المدفع فى عصرنا الحاضر .. القضية الجوهرية أن

هذا السؤال يخرج الطالب من العصر الحاضر الذى يعيش فيه، إلى العصر الذى شهد تنزيل القرآن، ثم إنشاء المذاهب الفقهية.

إذن نحن بهذا السؤال نعيد القارئ إلى بداية العصور الوسطى بالمفهوم الغربى السائد.

هذا السؤال يجسم - فى أبلغ صورة - أزمة بل مأساة الفقه الإسلامى الذى يعيش على مفاهيم وأقوال أئمة عاشوا فى عصور خلت، ولن تعود أبدًا حتى يرث الله - سبحانه وتعالى - الأرض ومن عليها، ويناقش قضايا ومسائل ناس قد ماتوا من مئات السنين، ولن يرجعوا إلى الحياة مرة أخرى إلا عندما يبعث الله من فى القبور.

وعلينا أولًا أن نميز - على نحو دقيق وحاسم - بين الشريعة والفقه والفتوى.

فأما الشريعة فإنها مجموعة القواعد العامة أو المبادئ التى تؤسس عليها حركة الناس، وتنظم العلاقات بينهم فى المجتمع، والتى يمكن استنباطها من النصوص الدينية "المقدسة"، المقطوع بصحتها ودلالتها.

وهو تعريف يمكن الوصول إليه بالنظر إلى الأصل اللغوى لكلمة الشريعة، التى تعنى الموضع (المكان) الذى كان ينبغى أن توقف فيه

الإبل والدواب قبل ورودها للشرب من عين الماء، فالشريعة أو الشرعة هى المبدأ (نقطة البداية) الذى تنطلق منه الدابة إلى عين الماء، والذى لابد أن تقف فيه قبل بدء الحركة، ومن هنا جاء لفظ الشارع وهو الطريق الواسع الذى ينظم السير.

وليرجع القارئ الكريم إلى لسان العرب لابن منظور،مادة (شرع)، ص 2238-2241.

والشريعة - إذن - هى مجموعة المبادئ التى تحفظ حقوق الخلق، والتى يجب عليهم أن يلتزموا بها فى سيرهم بالحياة الدنيا؛ حتى لا يبغى بعضهم على بعض، كما كانت الشريعة أو الشرعة تُنظم حركة الإبل والدواب عند ورودها للماء؛ حتى لا يبغى ولا يطغى بعضها على بعض، إن تُركت الدواب حرة فى حركتها نحو عين الماء.

ومن المضحكات المبكيات أو المهازل الفاجعة اختلاف وخلاف نخبتنا الثقافية والسياسية التى اختيرت لكتابة دستور مصر، حول مرجعية الشريعة الإسلامية عند التشريع (إصدار القوانين) بين النص على أن أحكام الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيس للتشريع، وهو الاتجاه الذى كان يتبناه أصحاب التيار السلفى على اختلاف أطيافه ومشاربه، وبين النص على اعتبار "مبادئ الشريعة الإسلامية" مصدر

رئيس عند التشريع، وهو الموقف الذى كان يتبناه أصحاب التيار المدنى أو العلمانى على اختلاف أطيافه ومشاربه.

أصحاب التيار السلفى يريدون بتعبير "أحكام الشريعة" تطبيق الأحكام الفقهية التى اختارها واستقر عليها أئمة مذاهبهم، وأصحاب التيار المدنى يريدون - بدرجات متفاوتة - إزاحة الإسلام وإبعاده عن تنظيم حياة الناس، ولكنهم لا يستطيعون "المجاهرة" بذلك.

والجميع يتماكرون، ويلفون ويدورون حول بعضهم، يخفون نواياهم ويتلاعبون بالألفاظ، دون صدق وصراحة فى التعبير عما تكن صدورهم.

والجميع يعانون من تشويش فكرى (عقلى)، واضطراب فى تحديد معانى الألفاظ التى يلوكونها بألسنتهم، ولم نر واحدًا منهم حاول أن يرجع إلى معاجم اللغة مثل لسان العرب؛ ليعلم معنى ما يتكلم به.

وأخيرًا، بعد شد وجذب، وشجار فى جلسات عديدة متطاولة، اتفقوا على النص الآتى: "مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع"، وهو نص يدل على مدى "الجهل" بمعانى الألفاظ العربية.

دعك أولًا من وصف "رئيسى"؛ لأن الصواب أن يُقال رئيس.

والقضية أن الصياغة تعنى بكل بساطة ووضوح: مبادئ المبادئ الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع؛ ومن ثم فإنها لا تعدو إلا أن تكون لغوًا لا معنى له، ولا طائل من ورائه.

وكان من المفترض إذا عرفنا واحترمنا اللغة العربية، التى نصّ الدستور نفسه على أنها اللغة الرسمية للدولة، أن يكون النص: الشريعة الإسلامية هى المرجع الرئيس عند إصدار القوانين (التشريع).

ذلك؛ لأننا عندما نصدر القوانين (نُشرِّع)، فإننا نراعى الأهداف والمصالح (المقاصد العليا) التى نريد تحقيقها والحصول عليها بالقوانين التى نَشْرع (نبدأ) فى إصدارها؛ لتيسير وتحسين حياتنا الدنيا، أو معيشة المواطنين. ولكن يجب مراعاة القواعد العامة، أى المبادئ، أى الشريعة التى نصت عليها النصوص الدينية المقدسة، المقطوع بصحة نسبتها إلى الوحى الإلهى، أعنى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة المقطوع بدلالتها؛ حتى لا تتعارض القوانين الحاضرة، أو المزمع إصدارها مع هذه الشريعة (المبادئ)، فنحن نريد مراجعة القوانين وضبطها طبقًا لما تقتضيه الشريعة الإسلامية، التى لا تعنى إلا المبادئ الكلية الجامعة، أو القواعد العامة المستمدة من

النصوص "الدينية المقدسة" التى جاء بها الدين الإسلامى، والتى لا تعنى إلا القرآن الكريم والأحاديث النبوية "الصحيحة"، القاطعة الدلالة، والمقطوع بصحتها، أى نسبتها إلى الرسول النبى الذى تلقى الوحى الإلهى.

***

ومن هذا التعريف للشريعة، ننتقل إلى تعريف الفقه، فنقول: إن الفقه هو القوانين، أى القواعد الفرعية الخاصة بكل مجال من مجالات الحياة البشرية؛ ومن ثم فإن العلاقة بين الشريعة والفقه، هى نفس العلاقة بين الأصل والفروع، أو بين الأب الوالد والأبناء الذين يخرجون من صلبه، ويجب أن يُنسبوا إليه؛ ومن ثم فإنها تماثل العلاقة بين الدستور - الذى يُسمى أبو القوانين أو القانون الأعلى - وبين القوانين التى يجب أن تتوافق معه وتحقق مقاصده العليا.

وهكذا نفهم أن الفقه هو "اجتهاد" العقول البشرية؛ من أجل استنباط (استخراج) القواعد الفرعية الخاصة، التى تنظم وتدير كل مجال أو نشاط من مجالات أو نشاطات الحياة البشرية من الشريعة (المبادئ أو القواعد العامة)، التى جاء بها النص المقدس، أو حملها الوحى.

ومن ثم فإن الشريعة ثابتة، لا تتغير؛ لأنها القواعد العامة التى نزلت فى الوحى لتحفظ حقوق الخلق، بتنظيم حياتهم الاجتماعية؛ ومن ثم فإنها ثابتة لا تتغير.

قال الله (سبحانه وتعالى) مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: 18].

شريعة من الأمر: مجموعة من القواعد العامة (المبادئ)، نزلت إليك مع الوحى؛ فإنها جزء "من الأمر" الذى نزل إليك .. وقال سبحانه وتعالى مخاطبًا إيانا، نحن البشر الذى نزل إليهم القرآن الكريم:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: 13].

لكى نفهم هذه الآية، علينا أن نتذكر ونتبين أن وحى الله – سبحانه وتعالى – إلى أنبيائه، وإلى نبيه الأمى ورسوله الأعظم محمد ﷺ، يتضمن قسمين:

1- الهدى، وهو الإيمان أو العقيدة التى تبين العلاقة بين الإنسان المخلوق والله الخالق.

2- الدين، وهو مجموعة القواعد العامة التى تبين العلاقة بين الخلق (الناس)، وتنظم حياتهم الاجتماعية.

و الدين (بهذا المعنى أو المفهوم) ينقسم إلى فرعين: الشريعة والأخلاق.

فأما الشريعة فإنها – كما بينا – مجموعة القواعد العامة أو المبادئ التى تحفظ حقوق الخلق (الناس) باتباعها، عن طريق المحافظة عليها عند استنباط (استخراج) القواعد الفرعية الخاصة بكل مجال من مجالات الحياة البشرية الاجتماعية، يعنى فى كلمة واحدة: بمراعاتها والحفاظ عليها عند إصدار القوانين (التشريع).

واحترام القوانين (القواعد الفرعية الخاصة) يتحقق بالعقوبات التى تُفرض على المخالفين، والتى يُنص عليها فى القوانين نفسها.

أما الأخلاق فإنها مجموعة "القواعد" التى يلتزم بها الإنسان بوازع من الواعظ الإيمانى الذى غرسه الله سبحانه وتعالى فى قلب (باطن) كل إنسان، والذى يدله على "الخير"، ويحضه عليه وعلى "الشر"، وينهاه عنه.

والخير لا يعنى إلا طاعة الله، أى اتباع الشريعة استنادًا إلى الإيمان بمن أنزلها (الله)، ومن أبلغها (رسول الله)، وذلك موضعه أو مكمنه القلب (الباطن)، والشر لا يعنى إلا معصية الله، أى مخالفة الشريعة؛ تكذيبًا أو استخفافًا بمن أنزلها، ومن أبلغها، وذلك موضعه أو مكمنه القلب (الباطن).

ومن ثم فإن الأخلاق (الضوابط الداخلية للسلوك) تلتحق بالإيمان، الذى هو الهدى الذى نزل به الوحى الإلهى .. وبالتالى لا يصبح معنى الدين – هنا – إلا الشريعة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٣٣ ﴾

[التوبة: 33].

الهدى: الإيمان، يعنى العقيدة الصحيحة.

دين الحق: شريعة العدل، يعنى مجموعة القواعد العامة أو المبادئ التى تحفظ حقوق الخلق؛ ومن ثم فإنها تحقق العدل (الحق).

ولذلك قال: "لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ"، والمعنى ليمكن "دين الحق" - الذى هو شريعة العدل - من التغلب على سائر الشرائع التى ابتدعها الناس، والتى تعجز عن تحقيق العدل! وذلك التمكين (الإظهار) على شتى الشرائع البشرية الأخرى (الدين كله)، إنما يكون بدخول الناس فى مختلف البلاد تحت سلطة دين الحق (شريعة العدل)، أو ببيان فشل الشرائع الأخرى - عبر التجارب البشرية - فى تحقيق العدل، الذى يحفظ حقوق جميع الناس؛ المؤمنين الذين اتبعوا الهدى (الإيمان)، والكافرين الذين كذبوا به.

ولذلك ختم الآيتين الكريمتين بقوله: "**وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**"، يعنى: إن إرادة الله - سبحانه وتعالى - إظهار (تغلب) دين الحق على سائر الشرائع، ستتحقق رغم كراهية "المشركين"، وهم "الوثنيون"، الذى لا يؤمنون بالله الواحد - سبحانه وتعالى - ولماذا لم يقل هنا "الكافرين"؟

والجواب: لأن أهل الكتاب (اليهود والمسيحيين) من ضمن الكافرين بالقرآن وبالنبى محمد، وهؤلاء اليهود والمسيحيون، لا ينبغى

لهم - بموجب إيمانهم - أن يكرهوا إظهار دين الحق (شريعة العدل التى هى شريعة الإسلام)؛ لأنهم يدينون بنفس الشريعة؛ فالشريعة - فى الحقيقة - واحدة فى الإسلام والمسيحية واليهودية؛ فهذه الديانات الثلاث تدين بشريعة واحدة، وإن اختلفت العقائد .. فإن الناس المنتمين لهذه الأديان الثلاثة، إذا أمعنوا النظر فى نصوص الكتب التى يدعون الإيمان بها؛ لعلموا أن الشريعة واحدة فى كتبهم.

فإن نصوص الأناجيل "الحالية" التى يقول المسيحيون إنهم يؤمنون بها تنص صراحة وبوضوح على اتباع شريعة موسى (الشريعة اليهودية).

ألم يقل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى الموعظة الأخيرة التى قالها فى هيكل سليمان لكل من استمعوا إليه، كما جاء فى الأناجيل المتداولة الآن فى أيدى الناس: "**على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون (الكهنة والفقهاء)، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا؛ لأنهم يقولون ولا يفعلون**". (إنجيل متى: الإصحاح 23).

إذن، فشريعة المسيح - التى ينبغى أن يتبعها المسيحيون - هى نفس شريعة موسى (كرسى موسى).

وشريعة موسى التى جاءت فى التوراة هى نفس شريعة محمد ﷺ التى جاءت فى القرآن.

ألم يقرأ أصحاب الصنعة من أهل الخطاب الدينى (العلوم الشرعية الإسلامية) عندنا، قول القرآن الكريم، منكرًا على يهود المدينة المنورة (يثرب) ذهابهم إلى رسول الله ﷺ، بدعوى سؤاله عن حكم الله، مع أنهم يكذبون بنبوته، ويريدون إثبات جهله، وتغييره لشريعة الله التى معهم، والتى يزعم أنه قد جاء بها، ويريدون - فى الحقيقة - أن يحكم لهم بخلافها: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: 43].

فقوله: "وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ" دليل لا يُدحض على أن شريعة الله (حكم الله) التى هى دين الحق (شريعة العدل) موجودة فى التوراة، التى فى أيدى اليهود على عهد رسول الله ﷺ.

إذن فشريعة الله واحدة فى كل الرسالات التى أنزلها على أنبيائه، على خلاف أهل الأوهام من "أئمتنا الأعلام"، الذين ظلوا يرددون عبر الأجيال أن الشرائع تختلف كأنهم لم يقرأوا القرآن الكريم الذى قال لنا نحن المسلمين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:13].

شرع لكم من الدين: أعلن وأظهر لكم من الشريعة نفس الذى وصى به نوحًا، والذى جاء فى القرآن الكريم، والذى وصى به إبراهيم وموسى وعيسى.

وما هى الوصية الجامعة لكل الأنبياء من نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الوصية هى: "أَقِيمُوا الدِّينَ"، وقد بينا أن الدين يعنى الشريعة.

والمعنى: أقيموا شريعة الله (دين الحق)، ولا تختلفوا، ولا يخالف بعضكم بعضًا فى إقامة هذا الدين (هذه الشريعة).

وسيكون من العسير على المشركين الذين لا يؤمنون بالله الواحد الخالق أن يستجيبوا إلى هذه الدعوة إلى إقامة شريعة الله.

والله يصطفى من يشاء من عباده، ويقربهم إليه، ويجعلهم حاملين لرسالته إلى خلقه، ويرشد ويقرب من يحقق التوبة! .. وتحقيق التوبة هو الإنابة.

هل يبقى بعد كل ذلك شك فى أن شريعة الله واحدة فى كل الرسالات الإلهية التى يسمونها السماوية كما زعموا؟!

والسؤال: ففيم اختلف الناس؟ فى أى شىء اختلفت الرسالات الإلهية، التى يقولون لها الأديان السماوية؟

الإجابة: فى المنهاج الذى اختاره الله - سبحانه وتعالى - لكل أمة فى عبادته، لقد اختلفوا فى "العبادات" يعنى فى الأعمال التى فرضها الله عليهم من أجل أن يُقيم كل إنسان الصلة بالله خالقه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: 48].

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ قائلًا له: لقد أنزلنا إليك القرآن (الكتاب)، حاملًا العدل الذى هو حفظ حقوق الخلق (بالحق)، وهو فى هذا يتطابق ويؤكد صدق الكتب التى نزلت من الله

من قبل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وينبغى أن تكون الأحكام النازلة فى القرآن المرجع الذى يحتكم إليه فى تقدير صحة ما بقى فى تلك الكتب السابقة من أحكام؛ لأن الناس قد امتدت أيديهم إلى نصوص تلك الكتب الإلهية السابقة، فغيروا فيها بالحذف والإضافة.

ومن ثم فقد غير حكم الله، الذى هو دين الحق، أى شريعة العدل.

ولذلك فقد نزل القرآن ليعيد حكم الله (شريعة العدل) إلى ما كان عليه، فالقرآن هو المهيمن الذى يمنح نصوص تلك الكتب صفة الحق (الصواب).

إذن فهو المرجع الذى يحتكم إليه فى تقدير صحة ما بقى من نصوص تلك الكتب (ومهيمنًا عليه)، ولذلك فيجب الحكم بما أنزل الله فى القرآن من شريعة؛ لأن حكم الله واحد فى كل الكتب التى نزلت من عنده، أو جاءت من السماء - كما يقولون.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فى القرآن من أحكام، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، فتحكم بها وتلتفت ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (العدل).

وغنى عن البيان أن الكلام عن "الحكم" إنما يتعلق بالقضايا (المسائل) التى تتناول حقوق الناس، وفيما ينشب بينهم من منازعات أو نزاعات.

لقد جعل الله لكل أمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ، فإذا كانت الشريعة واحدة، فإن المنهاج يختلف. والمنهاج - لغة - هو الطريق الواضح (لسان العرب، ص 4554).

والمقصود: المناسك أى العبادات التى فرضها الله - سبحانه وتعالى - على كل أمة؛ ليتقربوا بها إليه.

قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

[الحج: 67].

منسكًا: طريقًا للعبادة (التقرب إلى الله)، وأصل اللفظ يعنى الذبح، وتقديم القربان (الذبيحة) على سبيل التقرب إلى الخالق - سبحانه وتعالى.

ولكن توسع فى استعمال اللفظ، فصار يعنى مجمل العبادات (القربات).

هنا اختلفت الأمم، باختلاف المناهج أو المناسك التى أمر الله - سبحانه وتعالى - بها كل أمة؛ لتكون طريقها الواضح الذى تسير عليه من أجل أن تقترب من الله - سبحانه وتعالى - أى يرضى عنها فيقربها (يضمها) إليه.

ولذلك قال - سبحانه وتعالى - فى نفس السورة: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج: 34].

وقوله سبحانه وتعالى: فلا ينازعنك فى الأمر، يعنى فلا ينبغى لبنى إسرائيل (اليهود) وسائر أهل الكتاب أن يحاولوا حملك على أن تتبع منسكهم (طريقهم فى العبادة)؛ لأن الله قد جعل لكل أمة منسكًا يتقربون (يتعبدون) إلى الله على منهاجه.

وادع جميع الناس إلى أن يؤمنوا بربك، وهو الإله الواحد الأحد .. "إنك لعلى هدى مستقيم".

انظر كيف ألحق المنسك بالهدى الذى بينا سابقًا أنه الإيمان أو العقيدة الصحيحة؛ فإن رسالة الله - كما قال القرآن - تتكون من الهدى ودين الحق (شريعة العدل).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:33].

***

والفقه – كما قلنا – هو اجتهاد العقل البشرى فى استلهام الشريعة الإلهية (النصوص الدينية المقدسة)؛ من أجل استنباط القواعد الفرعية الخاصة بكل مجال من مجالات الحياة البشرية، أعنى من أجل استنباط القوانين – إذا استخدمنا اللغة المعاصرة – أو الأحكام = إذا اسخدمنا لغة العلوم الشرعية = التى تنظم "العبادات والمعاملات". هكذا أدمج ما أطلق عليه علم الفقه الإسلامى العبادات والمعاملات فى نطاق دراسة واحدة أو علم واحد، رغم أننا أسهبنا فى بيان أن العبادات كان يجب أن تلتحق بالهدى (العقيدة أو الإيمان)، والمعاملات أن تندرج تحت الشريعة أو دين الحق إذا استخدمنا المصطلحات القرآنية.

ولكن ليست هذه هى القضية الجوهرية التى نريد أن نمحصها ونوضحها .. القضية الجوهرية أن الفقه – باعتباره جهدًا بشريًّا – لابد أن يتغير، وأن يتطور، بتغير وتطور الحياة البشرية على كافة المستويات، وبتقدم العلم الإنسانى عبر الزمن، بتراكم المعرفة التى تنتجها الأجيال البشرية المتعاقبة.

والخلط بين الشريعة (دين الحق) وبين الفقه - وهو اجتهاد العقول البشرية - هو السبب الأول والرئيس لتخلف الخطاب الدينى عن مواكبة تطور وتقدم الحياة البشرية، وعن عجزه الواضح والفاضح عن الإجابة عن أسئلة هذا "العصر" الذى يعيش الناس فيه.

فمن عجيب أمر أصحاب العلوم الشرعية (الخطاب الدينى)، أنهم يقولون: إن الإمام محمد بن إدريس الشافعى أنتج مذهبًا فى الفقه عندما كان فى العراق، ثم انتقل إلى مصر وزاد علمه ونضج (استوى) عقله، فأنتج مذهبًا ثانيًا، فصار للشافعى مذهبان: القديم والجديد.

ورغم إقرارهم بهذه "الحقيقة" التاريخية الدامغة، التى لا سبيل إلى الشك فيها؛ فإنهم يصرون على جعل دراسة علم الفقه فى المدارس (المعاهد) والكليات الأزهرية تنحبس وتنحصر فى القوالب الجامدة للمذاهب الأربعة التى اختاروها لتكون المعبرة عن الفقه الإسلامى، وما أجمعت عليه الأمة؟!

هكذا يجد الطفل الذى يناهز المراهقة نفسه محبوسًا على دراسة الفقه على مذهب الإمام الشافعى أو على مذهب الإمام أبى حنيفة، الذى يحلو لهم أن يطلقوا عليه "الحبر الأعظم"، فى لغة تذكرنا بأحبار اليهود وكهنة المسيحيين.

وغنى عن البيان أن هذا الطفل لم يختر المذهب الذى أُجبر على دراسته؛ لأن والده أو المعهد (المدرسة) هو الذى اختار له ذلك.

وغنى عن البيان أن الطفل يشعر - من شدة تقديس الإمام صاحب المذهب كما يتلقى من أساتذته - أن أقوال المذهب هى الدين نفسه، وأن مناقشتها نوع من الكفر أو الإلحاد، وأن التفكير فى مذهب آخر إنما هو خروج من الملة.

ألم يقل أحد كبار الحمقى من أتباع المذهب الحنفى: كل آية من القرآن أو حديث تُخالف مذهبنا فهى إما مئولة أو منسوخة.

(انظر كتابنا "التحديات التى تواجه العالم الإسلامى"، وقد نقلنا النص من كتاب الدكتور عبد الودود شلبى "كلنا إخوة شيعة وسنة"، الذى نقل بدوره عن كتاب "ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين" للشيخ عبد الجليل عيسى).

مئولة: يجب صرف معنى ألفاظها لكى تتوافق مع أقوال المذهب الحنفى!!

منسوخة: أُلغى حكمها الذى يخالف المذهب، وإن بقى نصها فى القرآن الكريم .. فتأمل!!

وطالب العلم صغير السن، الذى درس بهذه الطريقة وبهذا "الروح"، لابد أن ينشأ عقله متعصبًا متشددًا، لا يقبل الرأى الآخر؛ بل إن الاختلاف مع رأيه يكون معناه الإشراف على حافة الكفر، والتردى إلى الخروج من الملة.

فما هو السبيل إلى الخروج من هذا السجن، أو النهوض من هذا الانحطاط؟

السبيل هو كتابة "علم فقه جديد"، لا ينحصر فى آراء الأئمة الأعلام، الذين ماتوا منذ أكثر من ألف سنة، وعاشوا فى عصور وبيئات تختلف وتخالف العصر الذى نعيش فيه، وانشغلوا بقضايا لم تعد تهم أحدًا من المسلمين المعاصرين، وسودوا آلاف الصفحات فى مناقشة الخصوم من أهل المذاهب الأخرى وتفنيد حججهم، وظلوا يعيشون ويقتاتون على وضع الحواشى على المتون، وشرح الحواشى، وتفريع القضايا على مسائل متخيلة لم تحدث.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أحرج (أحظر) عليكم أن تسألوا عما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلًا.

وقال ابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تسألوا عما لم يكن؛ فإنى سمعت عمر يلعن السائل عما لم يكن.

(انظر كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة"، ص 444).

والحقيقة التاريخية تقول: إن آلاف الصفحات قد سودت فى الحكم على قضايا لم تكن!!

لن نحرق كتب الفقه، أو نوقف طباعتها، ولكن يجب أن نكتب فقهًا جديدًا، فقهًا يخص عصرنا، ويجيب عن أسئلتنا التى يواجهنا بها العصر الذى نعيش فيه، مستفيدين مما أنتجه جهد الأئمة السابقين، ولكن متحررون من الانحباس فى أفهامهم وأقوالهم؛ فإنها مجرد آراء لبشر عاشوا وماتوا قبل أكثر من ألف سنة!! هذا ما نطمع أن يقوم به العلماء الحقيقيون من أصحاب الخطاب الدينى، وعليهم ألا يجدوا فى أنفسهم غضاضة من الاستفادة من جهود غيرهم.

والعمل الثانى فى هذا السبيل (إعادة كتابة الفقه الإسلامى) هو "إلغاء"ما يسمى بالتعليم الدينى قبل مرحلة الدراسة الجامعية.

أعلم أن ما أقول يصدم الكثيرين، وربما اتهموننى بمحاربة الإسلام والكيد للأزهر الشريف، منارة الدفاع عن الدين الحنيف ... إلخ.

إن القضية بالغة الوضوح لمن أراد الفهم، وصحت نيته لخدمة الإسلام والمسلمين.

ولذلك أقول: إن العلوم الدينية تتطلب حقًّا تفرغًا وجهدًا من أجل تحصيلها والتعمق فيها.

ولكن ذلك لن يؤتى "ثماره الطيبة" إلا لمن اختار دراستها بإرادته الحرة، ورغب فى أن يكون عالمًا بالدين.

ولا يجادل أحد فى أن الطفل الصغير الذى "يجبره" أهله على الالتحاق بالمعاهد الدينية الأزهرية فى مرحلة التعليم الأساسى (الابتدائى والإعدادى) والتعليم الثانوى قبل الجامعة ... أقول إن هذا الطفل الصغير لم يكن له أى اختيار فى اختيار نوع التعليم والمذهب الذى سيدرس عليه الفقه.

وغنى عن البيان أن هذا الوضع، أعنى انقسام التعليم إلى مدنى ودينى (أزهرى)، إنما يعود إلى عصر الاستعمار البريطانى فى مصر؛ ذلك لأنه لم يكن هنالك إلا نمط واحد من التعليم، ألا وهو التعليم الدينى الأزهرى.

فلما جاء الاستعمار البريطانى لمصر، وأرادت الحكومة الإنجليزية الحصول على موظفين "مدنيين"، يتولون إدارة الدواوين الحكومية، أنشأت المدارس "المدنية"؛ لتخرج لها الموظفين المطلوبين.

ثم جاء عصر الاستقلال والتحرر من الاحتلال، وبقى الحال على ما هو عليه من انقسام التعليم إلى أزهرى دينى ومدنى حكومى.

ثم جاء عصر الانفتاح الاقتصادى (السداح مداح) ببدعة المدارس الخاصة، بل والمدارس الأجنبية التى تدرس المواد العلمية بلغة أجنبية، وتدرس اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية، مع أن "اللغة" هى المؤسسة الأولى والرئيسة التى تقوم عليها الدولة .. فتأمل!!

ولذلك فإننى أدعو أيضًا إلى إلغاء هذه البدعة (المدارس الأجنبية أو مدارس اللغات).

إن المفترض فى أى دولة تحترم نفسها، أن يكون فيها نوع واحد من المدارس فى مرحلة التعليم الأساسى (الابتدائى والإعدادى)؛ لأن ذلك التعليم هو المصنع الذى يتم فيه صناعة المواطن، وتشييد الأمة الواحدة غير المنقسمة على نفسها، والتى يتهاوى بنيانها تحت ضربات معاول الخلاف الفقهى والفكرى والظلم الاجتماعى.

هل يليق فى القرن الحادى والعشرين المسيحى - الخامس عشر الهجرى أن نحدث الأطفال الذين دخلوا مرحلة المراهقة عن عشق الغلمان المُرد، وعن الجوارى والسبايا .. وعن المنجنيق؟!

على علماء الشرع أصحاب الخطاب الدينى، أن يقروا بأن بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ التى تتناول قضايا خاصة بذلك العصر الذى شهد تنزيل الرسالة ذات طبيعة تاريخية "مؤقتة"، وليس لها مكان فى عصرنا؛ لأنها تخص ذلك العصر، وليس لها صفة الثبات والخلود حتى تكون لنا موضعًا للاقتداء.

فعلى سبيل المثال، كل ما جاء فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة عن الرق وملك ذات اليمين، وبيع العبيد والجوارى ... كل ذلك يخص ذلك العصر، ولا ينبغى لنا أن نتمسك به باعتباره من شريعة الله (دين الحق) الصالح لكل زمان ومكان.

إننا لا نشك - طرفة عين ولا أقل من ذلك - فى أن القرآن المجيد قد نزل بمثل هذه الآيات، وأن الرسول الأعظم ﷺ قد قال تلك الأحاديث وحكم بتلك الأحكام .. ولكن كل ذلك من التاريخ الزائل، وليس من رسالة الله - سبحانه وتعالى - التى توجه بها إلى الإنسان فى كل زمان ومكان.

وفى التمييز الدقيق والحاسم بين ما هو تاريخى (زمنى) مؤقت وبين ما هو خالد ثابت، يكمن جوهر الاجتهاد، وهو التجديد الحقيقى، الذى يعنى تخليص "جوهر" رسالة الله من الأشكال التاريخية أو "القشور الزمنية" التى تتجسم فيها فى كل عصر، والتى قد تطمس حقيقتها، وتُطفئ نورها؛ بسبب أخطاء البشر وخطاياهم فى تلقى وفهم الخطاب الإلهى.

❊❊❊

يقول رسول الله ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف (جيل) عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين (المتشددين)، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

و هذا بالضبط هو معنى تجديد الخطاب الدينى.

❊❊❊

نموذج للتجديد
إسقاط أسطورة حد الردة

نموذج للتجديد
إسقاط أسطورة حد الردة

يقول رسول الله ﷺ: **"لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"** [الحديث رقم 7179 فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، من إعداد الأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى].

والأمانة هى الشيء الذى يُكلف الإنسان بحفظه، باعتباره وديعة مؤقتة عنده، على أن يؤديها على الوجه الذى يطلبه صاحبها عندما يُصدر أمره باستردادها أو إخراجها (إظهارها).

وخلافة الإنسان لله فى الأرض، أى وكالته عن الخالق فى ضبط شئون الحياة على كوكب الأرض، هى المقصودة بلفظ الأمانة فى قول القرآن الكريم:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: 72].

إذن فالتكاليف الشرعية، والوظائف العامة، والأشياء الثمينة التى يودعها أصحابها عند الآخرين، من الامانات الواجب حفظها وأداؤها عندما يطلبها أصحابها، وهم: **الله** الخالق فى حالة التكاليف الشرعية، و**الأمة** فى حالة الوظائف العامة، و**الأفراد** الآخرين فى حالة الأشياء الثمينة.

وغنى عن البيان أن الأمانة "**سر**" بين صاحب الشىء الأصلى وبين حامل الأمانة الذى كُلف بحفظها وأدائها (إخراجها أو إظهارها) عندما تطلب .. ولا يطلع على ذلك **السر** أحد غيرهما، وإلا لم يصح وصف الشىء بالأمانة.

ولذلك لا يبعث حامل الأمانة على أدائها على الوجه المطلوب عند الطلب إلا **الصدق**، الذى يعنى إظهار الحق، وهو ثمرة الإيمان.

ولذلك قال رسول الله: **"لا إيمان لمن لا أمانة له"**، والمعنى يفقد الإيمان ويصبح كافرًا من خان الأمانة؛ أى أنكر ما أودع عنده وكُلف بحفظه وأدائه عند الطلب.

وغنى عن البيان أنه يفقد الإيمان، ويصبح - فى الحقيقة – كافرًا، رغم أنه - ظاهرًا - يبقى فى عداد المؤمنين المنتمين إلى الملة (الجماعة

المؤمنة أو مجموع المسلمين) .. والمقصود أنه يصير منافقًا يُظهر الإيمان ويبطن الكفر فى قلبه، الذى لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله الخالق.

***

واستخدم لفظ "**الدين**" بمعان كثيرة فى اللغة العربية، تدور حول الحكم والقضاء والطاعة والولاء والانتماء والالتزام والخضوع أو الإذعان، والسياسة والعرف المستقر أو العادة المستدامة (1).

والمعنى الجامع لكل هذه الدلالات هو **القانون**.

واستعمل فى القرآن الكريم نفسه بعدة معانٍ، منها:

* **الحساب** فى مثل قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:4]؛ لأن يوم القيامة هو يوم الحساب الذى يُحاسب الله فيه عباده.

* **الجزاء** فى مثل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور: 25].

والمعنى فى ذلك اليوم يُتم الله لهم جزاءهم (عقابهم) العدل.

---

(1) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (دين)، ص 1467 -1470.

* **القانون** فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾

[يوسف: 76].

والمعنى ما ينبغى ليوسف أن يُعاقب أخاه طبقًا لقانون الملك.

* والقانون الإلهى المنزل فى رسالته فى مثل قوله: **"دين الحق"**، ومعناه شريعة العدل.

* **والسلطة** السياسية أو الحكم فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾

[الأنعام: 159].

والمعنى إن الذين تصارعوا على السلطة السياسية أى **"الحكم"** ومزقوه قطعًا، مقتسمين السلطة وممزقين وحدة الأمة إلى شيع متصارعة، تنزهت يا نبى الله أن تكون واحدًا منهم، أو أن ينتموا إليك.

* و**الديانة** بقسميها (جزءيها): العقيدة والشريعة فى مثل قوله تعالى:

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: 85].

وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

ونخلص مما تقدم إلى أن السياق هو الذى يحدد معنى "**الدين**"، وأن هذا اللفظ لا يعنى دائمًا وفى كل الحالات: العقيدة والشريعة، أعنى مجموع الرسالة الإلهية النازلة إلى الناس على أنبيائه.

***

ولذلك نقول: عندما يستعمل رسول الله فى نص واحد كلمتى "**الإيمان**" و"**الدين**"، فلا شك فى أن لفظ الدين هنا لا يعنى الإيمان، أى لا يدل على العقيدة: "**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**".

فإذا تأملنا فى الربط العميق الوثيق بين الإيمان والأمانة، وبين الدين والعهد، أمكننا أن نقول: إن قوله: "**ولا دين لمن لا عهد له**" معناه: لا ولاء ولا حقوق مترتبة عليه لمن خان العهد، والمقصود: لقد حُرم من الانتماء إلى الأمة (الجماعة المسلمة) ومن الحفاظ على حقوقه الواجبة له، والمترتبة على انتمائه (ولائه) إليها كل من خان عهده معها.

و"**العهد**" – على خلاف الأمانة – عقد **علنى** غير سرى، تُقام عليه الشهادة، يؤدى فيه كل طرف حقوق الطرف الآخر، مقابل الحصول على حقوقه التى تُعد واجبات على الآخر.

وأول وأخطر العهود: عقد البيعة، التى يقر فيها الفرد بالسمع والطاعة للسلطة الشرعية الحاكمة التى تدير مصالح الأمة وتُقيم العدل (حفظ الحقوق)، ويُقر فيها بالحفاظ على مصالح الأمة، وعلى رأسها وحدة الأمة، والحرص على منع تمزقها إلى شيع متنافرة متناحرة.

ولذلك فإن من يخون ذلك العهد (البيعة)، يصبح بلا حقوق على الجماعة التى تئويه وينتمى إليها، وتنمو فيها شخصيته، وبلا حقوق على السلطة الشرعية الحاكمة، التى من المفروض عليها أن تحفظ حقوق وترعى مصالح الأفراد والجماعات الخاضعين لها، أى الذين **يدينون** لها بالطاعة مقابل قيامها بالعدل.

والخلاصة: إن من ينقض عهد البيعة التى تمنحه حقوق الولاء للأمة يصبح مستباح الحقوق، وهذا هو معنى "**ولا دين لمن لا عهد له**".

***

وأول حقوق الإنسان، بل الحق الأساسى الذى تُبنى عليه سائر الحقوق هو الحق فى الحياة، أعنى واجب الجماعة والسلطة الحاكمة أن تحافظ على حياته.

ولذلك يصبح من العدل بالمفهوم الإنسانى والدينى (الشرعى) أن من يخون عهد الجماعة، أى يرتكب جريمة الخيانة العظمى التى تُعرض مصالح الأمة العليا للخطر، يستحق عقوبة القتل؛ إذ حُرم بخيانته من حقه فى الحفاظ على حياته.

ولذلك قال رسول الله: **"من بدل دينه فاقتلوه"**.

وهو الحديث الذى أخرجه الإمام البخارى مرتين فى الحديث رقم 3017، والحديث رقم 6922، ورواه ابن عباس فى معرض اعتراضه على تحريق على بن أبى طالب لبعض الزنادقة.

وتبديل (تغيير) الدين هنا - كما بينا - هو نقض عهد البيعة والولاء لجماعة المسلمين، وليس تغيير العقيدة (الديانة).

وللأسف الشديد فإن هذا الفهم الخاطئ هو الذى ساد الفقه الإسلامى، وكان الحديث النبوى المجتزء من سياقه النصى والتاريخى هو الأساس الواهى الذى أقام عليه الفقهاء ما أسموه **حد الردة،** ضاربين عرض الحائط بكل الآيات القرآنية التى أُعلنت - فى صراحة مطلقة - حق الإنسان فى اختيار الدين (العقيدة)؛ بل وتحدثت عن الخروج من الإسلام (الارتداد) فى آيات كثيرة، دون أن تذكر ولا فى مرة واحدة عقوبة القتل .. فتأمل!!

الكاتب في سطور

الكاتب فى سطور

الاسـم: توحيد عبد الفتاح حواش الزهيرى.

تايخ الميلاد: 16 فبراير 1953م.

المهنـة: طبيب.

عضو عامل باتحاد الكتاب المصريين.

العنـوان: جمهورية مصر العربية - محافظة القليوبية - طوخ - منزل رقم 19 الطريق السريع - أمام نقطة المرور.

تليفـون: 013/2461926

محمـول: 01283224125/

المؤلفات المنشورة:

(1) كلمـة مـن الله - روايـة تاريخيـة تتنـاول حيـاة المـسيح عيـسى ابـن مريم، فى سياق عرض تاريخى للعصر الذى عاش فيه - صدرت فى نوفمبر 1993.

(2) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن - دراسة تؤسس لموقف إسلامى أصيل فى ميدان فلسفة الفن والجمال. صدرت عام 1418 هـ - 1998م، عن دار القلم 36 شارع القصر العينى، القاهرة. ص ب: 65 مجلس الشعب.

(3) القرآن معجزة كل العصور - مدخل إلى فهم النص القرآنى، دار الشعب، القاهرة (92 شارع القصر العينى) عام 1421 هـ = 2001م.

(4) الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة - دراسة فى الإعجاز العلمى للقرآن، صدرت عن مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة (شارع عبد الله العربى، الحى السابع، مدينة نصر) عام 1424 هـ = 2003م.

(5) التحديات التى تواجه العالم الإسلامى، البحث الفائز بجائزة الدكتور محمد شوقى الفنجرى لخدمة الدعوة والفقه الإسلامى، الناشر دار الجميل، القاهرة، عام 1424هـ = 2003م.

(6) لمحات من حياة نبى الرحمة ﷺ سلسلة دراسات إسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

(7) الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (36 شارع القصر العينى، ص. ب: 65 مجلس الشعب)، عام 1432 هـ = 2011م.

(8) شرعية الأحزاب السياسية فى القرآن والسنة، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (36 شارع قصر العينى، ص. ب: 65 مجلس الشعب)، عام 1433هـ = 2012م.

(9) الطريق إلى غار حراء – رواية تقص حياة النبى قبل نزول الوحى عليه، تُطلب من مكتبة الوفاء (1 درب الأتراك بالأزهر)، والمكتبات الكبرى بالقاهرة.

(10) عندما عانقت الأرض السماء – رواية تقص مشهد الوحى فى غار حراء، صدرت عن دار النشر للجامعات، والوادى للثقافة والإعلام، 2014.

(11) أول الطريق – رواية ورؤية لنشأة الكون ونهايته، صدرت عن الوادى للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، 2015.

(12) الجمال فى القرآن الكريم – دراسة لمفهوم الجمال ومدخل لقراءة النص القرآنى، الوادى للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، 2016.

(13) حقيقة المعراج - تأويل جديد، دار النشر للجامعات.

(14) عند الغروب ولمن الملك؟ - روايتان قصيرتان، دار النشر للجامعات، 2016.

***

الفهرس

الفهرس

***